كتاب الهلال

أبو الشهداء
الحسين بن علي

تأليف
عباس محمود العقاد

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

العدد ٤

٨

كتاب الهلال

مجلة شهرية تصدر عن «دار الهلال» شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٤ ــ سبتمبر ١٩٥١ ــ ذى الحجه ١٣٧٠

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك ــ القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٧٩٨١٠٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ــ مصر والسودان
٨٥ قرشا صاغا ــ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية
أو لبنانية ــ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش
ات ــ فى سائر
أو ٩/٣٠ شلنا

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

أبو الشهداء
الحسين بن علي

تأليف

عباس محمود العقاد

دار الهلال بمصر

مقدمة

يسرني أن أقدم الى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » في سلسلة كتب الهلال ، ويعظم رجائي أن يصل الى أيد كثيرة غير التي وصل اليها في طبعتيه السابقتين ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها الى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارىء الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات • وقد استغرب منها أمورا كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » .

عجبا ! ان مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدامَ أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونها نارا حامية من عبيد البطون والاكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء !

كان هذا شعورى بكتاب أبى الشهداء حين قرأته من جديد لتقديمه الى هذه الطبعة من كتب الهلال : مسكينة هـــذه الانسانية ! لا تزال فى عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والانانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصـــلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغـــابرة ، لانه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كمـــا وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطيارات

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنهـا حقيقة واقعية عملية فى كل شىء الا فى ضمير الانســـان وروح الانسان

حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية ، وفى اتصال الاخبار بين كل ناحية من الكرة الارضية وناحية أخرى

حقيقة واقعية فى أعصاب الكرة الارضية اذا صح هــذا التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها فى أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الاعصاب فى أقصى المغرب وفى أقصى الشمال والجنوب

حقيقة واقعية فى كل شىء الا فى ضمير الانسان وفى روح الانسان ، وهذا هو المهم والاهم اذا أريدت للانسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام

ولن توجد هذه الوحدة الا اذا وجد الشهداء فى سبيلها . فأنعم بمقـــدم « أبى الشهداء » من جديد الى ضمائر فريق

كبير من بنى الانسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال

نتفاءل أو لا نتفاءل ..

نتشاءم أو لا نتشاءم ..

ليست هذه هى المسألة ، وانما المسألة هى ان طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الانسانية الا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ، ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء .

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية . فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها ان لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها

لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد ..

وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية الى ذكرى شهيدها الاكبر فنحنى الرؤوس اجلالا لأبى الشهداء

عباس محمود العقاد

طنز آوران تاریخیان

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية، ولكنهما اذا اصطدما ـ ولا سيما فى الاعمال الكبيرة ـ لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يجب المنفعة ويخفيها . وهذا للمنفعة حتى يجب الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يتراءيان

وأصحاب المطالب الكبرى فى التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من طموح الى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر فى سبيل العظائم

ولكل منهما سبيله الى النفوس وأمله فى النجاح على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التى لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريحية التى يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانسانى كله . ومن ثم يكتب لهـــا الدوام اذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضى قدما اليها ، فينال المنفعة التى لا ينالها صاحب الأريحية لأنه يتركهـــا اذا اصطدمت بما هو أجل منها

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ..

ولكن النجاح فى الحركات التاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فاذا قيل ان حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعـد ذهابهم . ومن هنا يصح أن يقال ان الأريحية أبقى وأنجح اذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، ســواء أكان حســـاب الأريحيين أم حساب النفعيين

وأصحاب الأريحية اذن أبعد نظرا من دهاة الطـــامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمـرهم القصير . فهم ـ شعروا أو لم يشعروا ـ بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيل الى أناس أنهم طائشون متهجمون

أما موقف المؤرخين فى العطف على حركات التاريخ فهو على ما ترى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير ..

فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم ..

والذين يجنحون بمزاجهم الى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبونها عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق

الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ..

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه واهماله، اذ كان تركه مناقضا لصميم الفطرة التى من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب

فليس يخشى على الناس يوما أن ينسوا منافعهم ويقصروا فى خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين

ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الاعجاب بها والتطلع اليها ، وهى التى خلقت ليعجب بها الناس . لأن حرص الانسان على منفعته لا يغنيهم فى حياتهم العامة أو فى حياتهم الباقية . أما الأريحية التى يتجاوز بها الانسان نفسه فى سبيل معنى من المعانى أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهى الخليقة النافعة للنوع الانسانى بأسره، وان جاز اختلافهم فى كل معنى وفى كل مثل عال

صراع بين الأريحية والمنفعة

فى ماضى الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التى وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ..

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح فى المبادىء وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معا من النموذج الذى عرضه لنا التاريخ فى النزاع بينهما على عهد الحسين بن على ويزيد بن معاوية

قلنا فى كتابنا « عبقرية الامام » ما فحواه ان الكفاح بين على ومعاوية، لم يكن كفاحا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحا بين الأمامة الدينية والدولة الدنيوية ، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الأمامة من حزب الامام

ولو حاول معاوية ما حاوله على لأخفق وما أفلح ، ولو أراد على أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئا عند محبيه ولا عند مبغضيه

فاذا جاز لأحد أن يشك فى هذا الرأى ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شىء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الامامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الأمامة غير مطالب الزمان

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين . وانما هو الصراع بين الامامة والملك الدنيوى ، أو بين الأريحية والمنفعة فى جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة ..

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » .. فان يزيد لم يكن له فضل قط فى قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده . وانما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين فى بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثانى بالشام — وكان من الزاهدين فى الحكم — فنادى الناس الى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أما بعد فانى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى الى بيته ومشت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر، وله مع هذا منافس قوى كعبد الله بن الزبير بالحجاز

□

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية.. ورأى معاوية وأعوانه فى هذا أسبق من رأى الطالبيين وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا

ذلك قبل ازجائهم النصح الى يزيد غير مرة بالاقلاع عن عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابا « يصغر اليه نفسه » .. قال : « وما عسيت أن أعيب حسينا ؟ والله ما أرى للعيب فيه موضعا »

□

وثم تعلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبته على « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية ..

فهذه التعلة ان صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعليل نجاح يزيد ..

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها في مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرا بطلب الخلافة ولا متعرضا لمزاحمة أحد على البيعة ، وانما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا أن الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وأن معاوية

لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأى ولا هو من أهل الصلاح ولا هو ممن تتفق عليهم آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عربيد يقضى ليله ونهاره بين الخمور والطنابير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان الا ليهرع الى الصيد فيقضى فيه الاسبوع بعد الاسبوع بين الأديرة والبوادى والآجام ، لا يبالى خلال ذلك تمهيدا للملك ولا تدريبا على حكم ولا استطلاعا لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير

فكل خلاف جاز فى المفاضلة بين على ومعاوية غير جائز فى المفاضلة بين الحسين ويزيد • وانما الموقف الحاسم بينهما موقف الأريحية الصراح فى مواجهة المنفعة الصراح • وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما فى النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس الانسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فأذن لاصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا يستحيون أن يفارقوه فى ضوء النهار • فأبوا الا أن يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدى : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله فى أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما بقى قائمه بيدى ، ولو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » •

وقد بر بقسمه وبقي ومات •• ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا أني أعلم أني في أثرك لاحق بك لاحببت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا ـ رحمك الله ـ أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين

وقتل الحسين وذهب الأمل في دولته ودولة الطالبيين من بعده الى أجل بعيد،ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها

فلما نعى الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة الجامعة • وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد ابن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته »

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى الذى ذهبت احدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين • فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ انما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه »

فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب ••

الى هذا الأفق الأعلى من الاريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية نصرة الحسين ••

والى الأغوار المرذولة من الخسة والأثرة هبطت بالنفس

والله أن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله »

□

وهكذا انتهت المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشـــم الى مفترق طريق لا ســـبيل فيه الى توفيق ، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام فى عهد النبوة ، وفى عهد الصديق والفاروق

وكفى بالاسلام فضلا فى هذا المجـال أنه غلب العصبية بالعقيدة ، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة

وكثيرا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وان طالت به الرياضة والانقياد

فاتفق كثيرا فى مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت الى اللسان بوادر العصبية والنبى عليه السلام حاضر . فلما أشار عمر بقتل أبى سفيان — على خلاف رأى العباس فى استبقائه وتألفه ، قال العباس : « مهلا يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف »

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفتـــرين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة الا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك — الأوس — ما قلت هذا .. »

وقد مات الفاروق وهو يوصى عليا فيقـول : « اتق الله يا على ان وليت شيئا ، فلا تحملن بنى هاشـــم على رقاب المسلمين » ·· ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين »

ومن عجائب الحيل التى تحاول بها الغرائز الانســانية أن تبقى وجودها وتمضى لطيتها أن بنى أمية إنتفعوا مـن حرب الاسلام للعصبية فى تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بنى هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون ·· واذا نهضت هذه الحجة على بنى هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة فى هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبى سفيان ، فكان يلطف القول الى أبناء على ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرا الى مجاملة آل على ومضطرا الى تنقص على والغض من دعواه · فكان بذلك مضطرا الى النقيضين فى آن

انه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور · فكان الناس يفضلون عليا عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقـــرابة النبى ، ولا بالسابقة الى الاسلام ، ولا بالعراقة فى قريش · فتجنب النسب والسابقة وعمد الى شخص على فى منازعات الخلافة، فاتهمه بتفرقة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التى هو مغلوب بها ويستبقى الدولة التى هو بها غالب ·· ولج فى ذلك حتى قتل أناسا لم يطيعوه فى لعن على واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن

على الى شرطه الذى أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه ٠٠وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورا من حيث حارب عليا فى مقام السمعة والشعور ٠٠

وان مجاملة كهذه التى تحيى الرجل وتغض من قدر أبيه لهى أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلا عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعدأجيال الى مفترق الطريق

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفى قصاص التاريخ ، فأضاف اليهـا أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هى وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين٠ وهى قصة زواج الحسين رضى الله عنه بزينب بنت اسحق التى كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياه

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال، وكانت زوجة لعبد الله بن سلام القرشى والى العراق مـن قبل معاوية

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته ٠٠فلما علم أبوه سر مرضه أرسل فى طلب عبد الله بن سـلام واستدعى اليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهمـا ان له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها حليلا غير ابن سلام، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية فى تكريمه وتقريبه ٠ فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية فى خطبة ابنته ، فوكل معاوية الأمر الى أبى هريرة ليبلغها ويستمع جوابها ٠فكان

جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله. فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده .. فاذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته انها توجس من رجل يطلق زوجته وهى ابنة عمه وأجمل نساء عصره

وقيل ان الحسين سمع بهذه المكيدة، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطبا .. فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « انك لا تعدمين طلابا خيرا من عبد الله بن سلام »

قالت : « من ؟ » . قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن على ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه فى الرجال »

واستشارته فى اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبله رسول الله، تضعين شفتيك فى موضع شفتيه »

فقالت : « لا أختار على الحسين بن على أحدا وهو ريحانة النبى وسيد شباب أهل الجنة »

فقال معاوية متغيظا :

أنعمى أم خالد رب ساع لقاعد

ولم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلا « ما ادخلتها فى بيتى وتحت نكاحى رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكن أردت احلالها لبعلها »

فإن صحت هذه القصة وهى متواترة فى تواريخ الثقات، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ،وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل فى هذه الخصومة لا يقبل الأرجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق

الخصمان

موازنة

لخص المقريزى المنافسة التى بين الهاشميين والأمويين فى بيتين فقال :

عبـد شمس قد أضرمت لبنى ها
شم حربا يشيب منهـا الوليـد
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند
لعـلى ، وللحسـين يزيد

وسنعرض فى ختـام هذا الفصل عرضا موجزا لهـذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأى فيها ، ولكننا نجتزىء هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصـاولين من هاشم وعبد شمس فى شخصى الحسين ويزيد .. فأيا كان الميزان الذى يوزن به كل من الرجـلين ، فلا مراء البتة فى خير الرجلين

وما من رجل فاز حيث ينبغى أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية فى حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقا وأظهر فضـلا من الحسين فى خصومته ليزيد بن معاوية

والموازنة بين هـذين الخصـمين هى فى بعض وجوهها

موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون . فلم يظهر في هذه القرون أموى قح ، الا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة في القبيلة بأسرها،ولم يظهر في خلالها هاشمى قح ، الا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التي بلغت مثلها الأعلى في محمد بن عبد الله عليه السلام

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع الى عبد مناف ، ثم الى قريش في أصلها الأصيل ..

ولكن الأسرتين تختلفان في الأخلاق والأمزجة وان اتحدتا في الأرومة .. فبنو هاشم في الأغلب الاعم مثاليون أريحيون ولاسيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولاسيما الأصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فان الأخوين في البيت الواحد قد يختلفان في الأخلاق والأعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعا لاختلاف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على ذلك النحو الذي يأذن أحيانا باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى في الصورة والقامة والملامح ..

وفي نسل أمية شبهة نشير اليها ولا نزيد ، فهي محل الاشارة والمراجعة في هذا المقام ..

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : « من رأيت من علية قريش ؟ » • فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية ابن عبد شمس » • فقال : « صفهما لى » • فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، فى جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » • قال : « فصف أمية » • قال : « رأيته شيخا قصيرا ، نحيف الجسم ضريرا ، يقوده عبده ذكوان » • فقال معاوية : « مه !•• ذاك ابنه أبو عمرو » • فقال دغفل : « ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه •• وأما الذى عرفت فهو الذى أخبرتك به »

وذكر الهيثم بن عدى فى كتاب المثالب أن أبا عمرو بن أمية كان عبدا لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهانى ـ وهو من الامويين ـ ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد

ووضح الفرق بين بنى هاشم وبنى أمية فى الخلائق والمناقب فى الجاهلية قبل الاسلام • فكان الهاشميون سراعا الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه •• ولم يكن بنو أمية كذلك •• فتخلفوا عن حلف الفضول الذى نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذى اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتآسى فى المعاش والتساهم فى المال ، وليمنعن القوى من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب» واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدى ولواه بثمنها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشى وأعطوه حقه ••

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى نفيل بن عدى ، قضي لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معــاهر وأبوه عف   وذاد الفيل عن بلد حرام

يشير الى فيل ابرهة الذى أغار به على مكة • وقال عن أمية أنه «معاهر» لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعــرض لامرأة من بنى زهرة ، وكان له تصرف عجيب فى علاقات الزواج والبنوة • فاستلحق عبده ذكوان وزوجـه امرأته فى حياته ، ولم يعرف سيد من ســادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر فى اختلاف النشأة والعادة ـ مع اختلاف الخلقة الجسدية ـ فنرى أنهما صالحتان لتفسـير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ••

فقد كان بنو هاشم يعملون فى الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون فى التجارة أو الرئاسة السياسية •• وهما ما هما فى الجاهليــة من الربا والمماكســة والغبن والتطفيف والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هـذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الايمان ووسائل الحيلة على النجاح

ويتفق كثيرا فى الكهانات الوثنية أن يتصف رؤســاء الأديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحــلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب

لا شك فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه ، وتراه يعمـل ويجزى من عمل له ، فلا تخطىء فى كلامه ولا فى عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التى اشتهر بها على وآله. وتجمعها فى كلمتين اثنتين تدلان عليها أو فى دلالة وهما : « الفروسية والرياضة » ..

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة فى الأسر يستوى فيها الخلق والخلق ، ونخوة لا تبـالى ما يفوتها من النفع اذا هى استقامت على سنة المروءة والاباء ..

فمن يحيى بن عمر ، الى عـلى بن أبى طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيى بن عمر يوصف لك ، فاذا هو صـــورة مصغرة من صور على بن أبى طالب عـلى نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التى وصفه بها الكاتب الأموى أبو الفرج الاصبهانى أنه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيدا عن رهق الشباب وما يعاب به مثله »

ومما روى عنه « أنه كان مقيما ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضى الله عنه »

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته فى بيت المال ، كان يجوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا أكلنا »

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد ، فأقبلت عليهم الجموع

المحشودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع ٠٠ هذه الخيل قد أقبلت » ٠٠ فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه ٠٠ فولى منهزما وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالى ما يكون

□

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلى أنه كان مدسوسا عليه ، وأنه غرر به لينكص عنه عند احتدام القتال ٠ فأقسم الرجل بالطلاق أنه لم يكن له فى الهزيمة صنع مدبر ٠٠ قال : « وانما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل ٠٠ وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عينى به وقد صرع فى وسط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابى »

ويحيى الشهيد هذا هو الذى قال ابن الرومى جيميته المشهورة فى وصف قتاله ومقتله ، وهى طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم
غداة التقى الجمعان والخيل تمعج (١)

لأعطى يد العانى أو ارتد هاربا
كما أرتد بالقاع الظليم (٢) المهيج

---

(١) معج الفرس اسرع سيره فى سهولة
(٢) ذكر النعام

ولـــكنه ما زال يغشى بنـــحره
شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج

وحاشى له من تلـــكم غـــير أنه
أبى خطة الأمر الذى هـــو أســـمج

وأين به عـــن ذاك ؟ لا أين ـ انه
اليـــه بعرقيـــــه الزكيين محرج

كأنى به كالليث يحمى عرينـــــه
وأشـــباله لا يزدهيـــه المهجهج

كدأب عـــلى فى المواطن قبـــله
ـ أبى حسن ـ والغصن من حيث يخرج

كأني أراه اذ هوى عـــن جـــواده
وعفـــر بالترب الجبين المشـــجج

فحب به جسما الى الارض اذ هـــوى
وحب به روحا الى الله تعرج

وقد أصاب ابن الرومى الوصف والتعليل ، فما كان كل من يحيى ولا أسلافه من قبـــله الا عليا صغيرا يتأسى بعلى الكبير ، أو غصنا زاكيا يخرج من دوحته الكبرى ، والغصن من حيث يخرج كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع فى أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد ستة أجيال · فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الاجيال ـ وهو بعموده الحديدى وجرأته التى لا تتزعزع ويقينه الذى لا يلوى به الاغراء والوعيـــد ـ كأنما هو نسخة أخرى من جده الكبير الذى يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال ،

وينهد لعمرو بن ود وقد تهيبه مئات الابطال ، ويتوسط الصفوف حاسرا وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال

▭

ولم يكن لبني أمية — على نقيض هذا — نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما يعتز بها آبناء بيتها وفروع أرومتها • بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي الى صفات تقابل تلك الصفات ، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا •• فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التي دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس المطامع السياسية • فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع والاقبال على الترف ومناعم الحياة

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل الأسرتين ، كما تقابلا في كثير من الخلائق والحظوظ •• ولكنهما تفاوتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا في غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما • فكان الحسين بن علي نموذجا لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجا لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة الا القليل

وليس بنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من الرجلين

وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزىء منهما بما يملأ الكفتين فى هذا الميزان،وهو ميزان الأريحية والنفعية فى حادث كبير من حوادث التاريخ العربى يندر نظيره فى جميع التواريخ

مكانة الحسين

واذا كانت المعركة كلها هى معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التى ينبغى توكيدها هنا للحسين بن على رضى الله عنه هى مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبى عليه السلام ..

ان المؤرخ الذى يكتب هذا الحادث قد يكون عربيا مسلما أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمدا وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطىء دلالة الحوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التى قلنا أنها أحق مزايا الحسين بالتوكيد فى الصراع بينه وبين يزيد

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف فى نفوسهم أو قيمته فى علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف فى الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ..

فلولا هذه المزية فى الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك

الدلالة التى كشفت النفس الانسانية فى جانبين منها قويين، يتنازعان حوادث الامم والافراد من زمان بعيد ، وسيظلان على نزاعهما هذا الى زمان بعيد

ولقد كان الحسين بن على بهذه المزية أحب انســـان الى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تنعطف اليه القلوب

كان النبى عليه السلام هو الذى سماه ، وسمى من قبله أخاه •• قال على رضى الله عنه : «لما ولد الحسن سميته حربا فجاء رســـول الله فقال : (أرونى ابنى ما سميتموه ؟) • قلت : (حرب !) • فقال : (بل هو حسن) • فلما ولد الحسين ســـميته حربا ، فجاء رسول الله فقال : (أرونى ابنى •• ما سميتموه) • قلت : (حرب !) • فقال : (بل هو حسين) •• »

وذهب الى الحسين واخوته كل ما فى فؤاد النبى عليـــه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من نسله • فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن يســـتمع الى بكاء منهما فى طفولتهما ، عـلى كثرة ما يبكى الاطفال الصغار • وخرج من بيت عائشة يوما فمر على بيت فاطمة فســـمع حسينا يبكى ، فقال : « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟ »

وكان يقول لها : «ادعى الى ابنى» •• فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين •وروى أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلغ لسانه للحسين ،فيرى الصبى حمرة لسانه فيهش اليـــه ، وكان عيينه بن بدر ، شهده فى بعض هذه المجالس فقال متعجبا : « يصنع هذا

بهذا ؟ فوالله ان لى الولد وما قبلته قط ! » • قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يرحم ! »

وخرج ليلة فى احدى صلاتى العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة • قال راوى الحديث : « فرفعت رأسى فاذا الصبى على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودى ، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله : انك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك • قال : كل ذلك لم يكن •• ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله •• »

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران •• فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ! •• (انما أموالكم وأولادكم فتنة) •• نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما »

□

ولا يوجد مسلم فى العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذى غمر به قلبه الكريم سبطية وأحب الناس اليه • فبهذا الحنان النبوى قد أصبح الحسين فى عداد تلك الشخوص الرمزية التى تتخذ منها الامم والملل عنوانا للحب ، أو عنوانا للفخر ، أو عنوانا للألم والفداء •• فاذا بها محبوب كل فرد

ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كأنما تمت اليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة

وقد بلغ الحسين بهـــذا الحنان مع الزمن مبلغة من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصـفيه أن يلحقه فى حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات . فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش الا الحسين وعيسى بن مريم» . وقال آخرون أنه رضى الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى « واعتلت فاطمـة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيـــه فيلقمه ابهامه فيمصه ويجعل الله فى ابهام رسوله رزقا يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يوما وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله .. »

وروى عنه غير ذلك كثير من الأساطير التى تحيط بهـا الأمم تلك الشخوص الرمزية التى تعزها وتغليها فتلتمس لها مولدا غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقها أو يوشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤا لتلك الصورة الرمزية التى نسجتها حوله الاجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة

فكان ملء العين والقلب فى خلق وخلق، وفى أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه .. الا أنه كان فى شدته أقرب الى أبيه . قال على رضى الله عنه مشـيرا الى الحسن : « ان ابنى هذا سيخرج من هـــذا الأمر ، وأشبه أهلى بى الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبى ، وعلى الحسين الشدة كعلى »

وقد تعلم فى صباه خير ما يتعلمه أبنـاء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليـه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التى يعولون عليها ويردونهـا الى على بن أبى طالب رضى الله عنه

وقد أوتى ملكة الخطابة منطلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال ايمان • ومن كلامه المرتجـل قوله فى توديع أبى ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشـام : « يا عماه ! ان الله قادر أن يغير ما قد ترى • والله كل يوم فى شأن : وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغنـاك عما منعوك وأحوجهم الى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وان الجشع لا يقـدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلا »

وكان يومئذ فى نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا الى أن فارقها فى مصرع كربلاء

وتواترت الروايات بقوله الشـعر فى أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

اغن عن المخلوق بالخـالق   تغن عن الكاذب والصـادق
واسترزق الرحمن من فضله   فليس غـير الله مـن رازق
من ظن أن الناس يغنـونه   فليس بالرحمن بالواثق

ومنه هذان البيتان فى زوجته وابنته :

لعمـرك اننى لأحب دارا   تكون بها سكينةوالرباب
أحبهمـا وأبذل كل مالى   وليس لعاتب عندى عتاب

وهما ســواء صحت نسبتهما اليه أو لم تصح ، معبران عن خلقه فى بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حدبا على الابنـــاء وأشد الأزواج عطفا على النســاء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هــذه التى ذكرت فى البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فقالت : « ماكنت لأتخذ حما بعد رسول الله » • وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت ، وهى لا تفتر عن بكائه والحزن عليه

خلق كريم

وقد سن الحسين لمن بعده سـنة فى آداب الأسرة تليق بالبيت الذى نشأ فيه ووكل اليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن فى مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمع الى رأى الحسن ولا يسوءه بالمراجعــة أو المخالفة • فلما هم الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من الحسين • فلم يوافقه وأشــار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : « والله لقد هممت أن أســـجنك فى بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضى بشأنى هذا وأفرغ منه ثم أخرجك»

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ••

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة أنه ركبه دين فساومه معاوية بمائتى ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبى نيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته الى بعض ما عرض عليه ـ لأن أباه تصدق بمائها لفقراء المدينة ،ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعاية الناس عامة .. فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذاهب الى المدينـــة فقال : « اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن عـــلى رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزرا الى أنصاف ساقيه »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه النـــاس بتخطئة وهو يعلمهم ويبصرهم بشؤون دينـــهم ، الا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباه تلك القوارص التى كانت تؤثر عن أبيه

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين

□

فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا أعرابيا يخفف الوضوء والصـــلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له : « نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضـــوء والصلاة منا، فنتوضأ ونصلى عندك،فان كان عندنا قصور تعلمنا ».فتنبه الشيخ الى غلطه دون أن يأنف من تنبيههما اليه . ومر يوما بمساكين يأكلون فدعوه الى الطعام على عادة العـــرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجـــبتكم فأجيبونى » ودعاهم الى الغداء في بيته

ورويت الغرائب في اختبار حـــذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب في امتحان قدرة أبيـــه عليهما

السلام ... فقيل ان اعرابيا دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن رضى الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه، فقال لما عرفوه به : « اياه أردت .. جئت لأطارحه الكلام واسأله عن عويص العربية » .. فقال له بعض جلسائه : « ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » . وأومأ الى الحسين عليه السلام، فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته قال : « انى جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

– يا اعرابى ! لقد تكلمت بكلام ما يعقله الا العالمون

فأجابه الاعرابى قائلا يريد الاغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت مجيبى على قدر كلامى ؟ ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتا تسعة ، منها :

هفا قلبى الى اللهو وقد ودع شرخيه

فأجابه الحسين مرتجلا بتسعة أبيات فى معناها ومن وزنها وقوافيها ، يقول منها :

فما رسم شجانى قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين فى بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه

الى آخر الابيات ... ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفى هذه الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها واشارة اليها

فقال الاعرابى : « ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاما ، وأذرب لسانا ، ولا أفصح منه منطقا »

وتلك رواية من روايات على منوالها ، ان لم تنبىء بما وقع فهى منبئة بما تداوله النـــاس من شهرة الحسين فى صباه الباكر بالعلم والفصاحة ..

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه وبهم من الطمع فى اصغائه أكبر من طمعهم فى عطائه .. ولكنه على هذا كان يجرى معهم على شرعة ذوى الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه فى خصاصة الحال . وقد لامه أخوه الحسن فى ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقى به العرض » الا أنه فى الواقع لم يكن يعطى لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطى من قصده من ذوى الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الانسانية وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية أن بينه وبين الرجل عهدا وعقدا لا يجوز له نقضه حتى تمضى المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معا ، فقال لصحبه يوما وقد أرسل الهدايا الى وجوه المدينة من كسى وطيب وصلات : « ان شئتم أنبأناكم بما يكون من القوم ... أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من الطيب وينهب ما بقى من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما

الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيـه بصفين فان بقى شىء نحر به الجزر وسقى به اللبن ... »

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدنه » كما قيل . وهى فضيلة ورثها عن الآباء وأورثهـا الابنـاء بعده ، وقد شـهد الحروب في افريقية الشمالية وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعا من الجمل الى صفين . وليس فى بنى الانسان من هو أشجع قلبا ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين فى يوم كربلاء

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها فى الدم بالوراثة . فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التى تتم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط .. ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الاوروبيين كانوا يسمونها المداحى جمع مدحاة ، وهى أحجار أمثـال القرصة يحفرون فى الارض حفيرة ويرسلون تلك الاحجار ، فمن وقع حجره فى الحفيرة فهو الغالب

◻

أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمـال الذوق والقصـد فى تناول كل مباح . كان يحب الطيب والبخور ، ويأنق للزهر والريحان ..

وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجبـا : « جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » . قال : « كذا أدبنا الله .. قال

تبارك وتعالى : (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) •• وكان أحسن منها عتقها »

وكان يميل للفكاهة ويأنس فى أوقات راحتـه لأحاديث أشعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف فى عصره لم يكن يقارب منـه الا ما كان يجمل بمثله • حتى تحـدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر يصومها غير أيام رمضان ، ولا يفوته الحج عاما الا لضرورة

وقد عاش سبعا وخمسين سنة بالحساب الهجرى ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون •• فلم يعبه أحـد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له• واقترحوا عليه أن يكتب اليه بما يصغره فى نفسه • فقال انه كان يجد ما يقوله فى على ، ولـكن لا يجد ما يقوله فى حسين

تلك جملة القول فى سيرة أحد الخصمين •

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضـة لا موقف المقارنة والمعادلة فى معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله

فيزيد بن معاوية عريق النسب فى بنى عبد مناف ثم فى قريش،ولكن الاصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التى اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد

مناف • وأشهرها الأثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها • وندر من وجوه الأمويين في الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى صاحبها ضررا أو مشقة في سبيل نفع الناس ••

وبيت أبى سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها ••

ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نذكرها فى هـذا المقام أن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليرث شيئا من هذه السيادة التى كان قوامها كله وفرة المال ، لان أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله فى حروب الاســلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوارث • وروى ان امرأة استشارت النبى عليه السلام فى التزوج بمعاوية فقال لها : «انه صعلوك !»

كذلك ينبغى أن نذكر حقيقة أخرى فى هذا المقام ، وهى ان معاوية لم يكن من كتاب الوحى كما أشاع خدام دولتــه بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبى عليه السلام فى عامة الحوائج وفى اثبات ما يجبى من الصـدقات وما يقسم فى أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبى شيئا من آيات القرآن الكريم

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه فى فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجرا بن عدي وســتة من أصحابه لانهم كانوا ينكرون سب عــلى وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول: « ما قتلت أحدا الا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجرا فانى لا أعرف بأى ذنب قتلته »

وأم يزيد هى ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بنى كلب المعـــرقات فى النسب ، وهى التى كرهت العيش مع معاوية فى دمشق وقالت تتشوق الى عيش البادية :

للبس عبـــاءة وتقر عيـنى أحب الى من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيـــه أحب الى مـــن قصر منيف

ومن هذه الأبيات قولها :

وخـــرق من بنى عمى فقير أحب الى مـــن علج عنيف !

فأرســـلها وابنها يزيد الى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيدا عن أبيه ..

□

وقد أفاد من هـــذه النشأة البـدوية بعض أشياء تنفع الاقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف فىأعقاب السلالاتالقوية تضيرهم وتجهز على ما بقى من العزيمة فيهم

فكان ما استفاده من بادية بني كلب بلاغة الفصـــحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولاسيما الكلاب

وهـــذه صفات فى الرجل القوى تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها فى أعقاب السلالات ـ أو عكارة البيت كما يقال بين العامة ـ مدعاة الى الاغراق فى اللهو والولع بالفراغ لأنها هى عنـــده كل شىء وليست مددا لغيـرها من كبار الهمم وعظائم الهموم

وهكذا انقلبت تلك الصفات فى يزيد من المـــزية الى النقيصة .. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغريا له بمعاشرة

الشعراء والندماء فى مجالس الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرادين والفهادين ، فكان له قرد يدعوه « أباقيس » يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه اتانا فى السباق ويحرص على أن يراه سابقاً مجليا على الجياد، وفى ذلك يقول يزيد كما جاء فى بعض الروايات:

تمسك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها ان سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به
جياد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغا فى المذمة حين قال فيما نسب اليه : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ٠ ان رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنا »

□

ولكن الروايات لم تجمع على شىء كاجماعها على ادمانه الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظائم ٠٠ وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها اصابة الكبد من ادمان الشراب والافراط فى اللذات ٠ ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقا واختراعا من الأعداء لأن الناس لم يختلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص،

وهما بغيضان أشد البغض الى أعداء الامويين·· ولان الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان

ولم يكن هذا التخلف فى يزيد من هزال فى البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعترى أحيانا بقايا السلالات التى تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالا فى الاخلاق وسقما فى الطوية ·· قعد به عن العظائم مع وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التى تزيد فى وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة · وقد أصيب فى صباه بمرض خطير – وهو الجدرى – بقيت آثاره فى وجهه الى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع فى البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهوا وفراغا ، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان فى ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف الى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعهم عن بلاد الاسلام – أو بلاد الدولة الاموية – تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن في طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقا
بدير مران عندى أم كلثوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله فى خلواته

□

ومن أعجب عجائب المناقضة التى تمت فى كل شىء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى فى تلك الخصال التى تأتى بها المصادفة ولا فضل فيها لاصحابها ومنها مزيد السن وسابقة الميلاد

فلما تنازعا البيعة كان الحسين فى السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وافى المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد فى نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شؤون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء العصور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول فى أمة العرب حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار .. وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التى تعلو بصاحبها فى الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة

كذلك لا يقال ان «الوراثة المشروعة» فى الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين فى ميزان العروبة والاسلام. فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون فى ذلك الزمان، ولم يكن معقولا أن العرب فى صدر الاسلام يوجبون طاعة يزيد لانه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبى فى أمر الخلافة لانهم قرابة محمد عليه السلام

فقد شاءت عجائب التاريخ اذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط فى أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التى أعانته وهو غير صالح لان يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله .. ولئن كان فى تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكونن هى عصبية القبيلة من بنى أمية ، وهى هنا نزعة مواربة تعارض الايمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس

لهذا شك بعض الناس فى اسلام ذلك الجيل من الامويين، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك فى صدق دين أبى سفيان لان أخباره فى الاسلام تحتمل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدى الفرائض ويتبرك بتراث النبى ويوصى أن تدفن معه أظافره التى حفظها الى يوم وفاته . وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثانى على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشىء فى بيت مدخول الاسلام ، يتصارح أهله أحيانا بما ينم على الكفر به أو التردد فيه ..

انما هى الأثرة ، ثم الخرق فى السياسة ، ثم التمادى فى الخرق مع استثارة العناد والعداء .. وفى تلك الأثرة ولواحقها ما ينشىء المقابلة من أحد طرفيها فى هذه الخصومة، ويتم المناظرة فى شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين، ونعنى بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين واليزيد الا المثالان الشاخصان منهما للعيان

أعوان الفريقين

رجال المعسكرين

كان الحسين فى طريقه الى الكوفة – يوم دعاه شيعته اليها – يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية ، وقلما اختلفوا فى الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة – والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت – فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية . والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء »

وقال له مجمع بن عبيد العامرى : « أما اشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك »

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد،فان الناس جميعاكانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن على ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية ، فهم اذن عليه بالسيوف التى تشهرها الأيدى دون القلوب ..

وقد « أعظمت الرشوة» للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بنى أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسينا ولا ينصرون الامويين .. أو كانوا يصانعون الامويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين

ومن هؤلاء هانىء بن عروة من كبار الزعماء فى قبائل كندة ، وشريك بن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعى ، وكلاهما من ذوى الشرف والدين

بل كان من العاملين لبنى أمية من يخزه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بنى أمية ليلوذ بالمعسكر الذى كتب عليه الموت والبلاء . كما فعل الحر بن يزيد الرياحى فى كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » . فلما قال : « نعم » ترك الجيش الأموى وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له : «جعلت فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت بك فى هذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت . وانى تائب الى الله مما صنعت . فهل ترى لى من توبة ؟ »

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! »

فمجمل ما يقال على التحقيق أنه لم يكن فى معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين الا وهو طامع فى مال ، مستميت فى

طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبـــالى بشىء منها فى سبيل الحطام

ولقد كان لمعاوية مشـــيرون من ذوى الرأى كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التـــاريخ أنصار دول وبناة عروش ..

وكان لهـــم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأميم ..

لكن هؤلاء بادوا جميعا فى حياة معاوية، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش ، وانما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنهـــا شرذمة جــلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين

فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة ..

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد فى صيدكبير..

وكانوا فى خلائقهم البدنية على المثال الذى يعهد فى هذه الطغمة من الناس ، ونعنى به مثال المسخاء المشـــوهين .. أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولاسيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة ، فاذا بهم يفرغون حقدهم فى عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذى لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذى الجوشن ، ومسلم بن

عقبة ، وعبيد الله بن زياد. ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد بن أبى وقاص

فشمر بن ذى الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة،وكان يصطنع المذهب الخارجي ليجعله حجة يحارب بها عليا وأبناءه ، ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد فى حضرة المال

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة فى مسلاخ انسان « وكان أعور أمغر ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل اذا مشى »

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، أنه أباح المدينة فى حرم النبى عليه السلام ثلاثة أيام،واستعرض أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الاقدام فى الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والانصار وذرية أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأمير المؤمنين ..!

وانطلق جنده فى المدينة الى جوار قبر النبى يأخذون الاموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى فى تقدير الزهرى سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالى. ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا فى مسجدهم ! بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم..وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على

جريحهم وانتهبناها ثلاثاكما قال أمير المؤمنينأعز الله نصره، وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان فى حرز وأمان . والحمد لله الذى شفا صدرى من قتل أهل الخـــلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديما ما طغوا . أكتب هذا الى أمير المؤمنين وأنا فى منزل ســـعيد بن العاص مدنفا مريضا ما أرانى الا لما بى ... فما كنت أبالى متى مت بعد يومى هذا ... »

وكل هذا الحقد المتأجج فى هـذه الطوية العفنة انما هو الحقد فى طبائع المسخاء الشائهين...يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب فى قريش ، لأن أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه. ثم ألحقه معاوية بأبى سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغيا فجاءوه بجارية تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد انها حملت به فى تلك الليلة ..

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بها وينسبونه اليها ، ومن عوارض المسخ فيـه ـ وهى عوارض لها فى نفوس العـــرب دخلة تورث الضغن والمهانة ـ أنه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية

فكان اذا عاب الحرورى من الخوارج ، قال : « هرورى » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول اشهروا سيوفكم ،

فقال افتحوا سيوفكم •• فهجاه يزيد بن مفرغ قائلا :

ويوم فتحت سـيفك من بعيـد
أضـعت وكل أمرك للضيـاع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدى والأرجـل والأمر بالقتل فى ساعة الغضب لشبهة ولغـير شبهة • ففى ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التى حرم الله قتلها على الغضب والعـداوة وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا » .

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصـدى عبيد الله بن زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ فى شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يبغضه ويبغض أباه لانه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل فى الدعوة الى بيعة يزيد ، فكان عبيد الله من ثم حريصا على دفع الشبهة والغلو فى اثبات الولاء للعهد الجديد ••

والذين لم يمسخوا فى جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد بن معاوية ، كان الطمع فى المناصب والأموال واللذات قد بلغ بهم ما يبلغه المسـخ من تحويل الطبـائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس فى الحقائق ••

ومن هذا القبيل، عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى أطاع عبيد الله بن زياد فى وقعة كربلاء ولم يعـدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية فى يديه

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الرى ، وهى درة التـاج فى ملك الأكاسرة الأقدمين • وكان يتطلع اليها منذ فتحها

أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب اليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدرى وانى لحائر
أفكر فى أمرى على خطرين
أأترك ملك الرى والرى منيتى
أم ارجع مأثوما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها
حجاب ، وملك الرى قرة عينى

فان لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك من لسان حاله ، لانها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه

□

ومن الواقع الذي لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز، فهو الذى ساق نساء الحسين بعدمقتله على طريق جثث القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء •• فصحن وقد لمحنها على جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان • ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما فى أيديهم من أموال ووعود •• وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالى من يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب •• .

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم

أعوانا له فى ملكه ، قضى عليـه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين عـــلاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء ، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال

وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح ، وهى اذن حرب جلادين وشهداء

خروج الحسين

الحسين فى مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك الا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير فى مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له فى حياة معاوية ..

وكان الوليد بن عقبة بن أبى سفيان والى معاوية يومئذ على المدينة .. فلما جاءه كتاب يزيد بنعى أبيه ، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذا شديدا ليس فيه رخصة » دعا اليه بمروان بن الحكم ، فأشار عليه بمشورته التى جمعت بين الاخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فان بايعا والا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الاشارة اليه فى محضر مروان . اذ عاد الحسين الى بيته ، وقد عول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله . فخرج منها لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، ولزم فى مسيره الى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه كما فعل الزبير مخافة الطلب من ورائه . فصحت فى الرجلين فراسة معاوية فى هذا الأمر الصغير ، كما صحت فى غيره من كبار الأمور

وانصرف الناس فى مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة

غيره ، ومنهم ابن الزبير • فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نمى اليه من آراء الناس فى الحجاز والعراق وسائر الاقطار الاسلامية

فلبث الحسين فى مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين الى الظهور وطلب البيعة ، ولاسيما أهل الكوفة وما جاورها •• فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك، وألحوا فى الكتابة يستعجلونه الظهور

وتردد الحسين طوال هذه الاشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات ، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب ••

وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب يمهد له طريق البيعة أن رأى فيها محلا لتمهيد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتابا يقول فيه : « أما بعد فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى عليكم ، وقد بعثت اليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب الى بحالكم وأمركم ورأيكم •• فان كتب الى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا ان شاء الله • فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام »

ثم بلغ الحسين أن مسلما قد نزل الكوفة ، فاجتمع على

بيعته للحسين اثنى عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا، فرأى أن يبادر اليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا فى مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير الى جهة غير جهة العراق

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى ــ وهو بعد فى المدينة ــ أن يبعث رسله الى الامصار ويدعوهم الى مبايعته قبل قتال يزيد فان أجمعوا على بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا عقله »

وكان عبد الله ابن الزبير يقول له : « ان شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك ، وان لم تشأ البيعة بالحجاز تولينى أنا البيعة فتطاع ولا تعصى »

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين .. ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الاصبهانى . قال : « ان عبد الله ابن الزبير لم يكن شىء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب اليه من خروجه الى العراق طمعا فى الوثوب بالحجاز .. لان ذلك لا يتم له الا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أى شىء عزمت يا أبا عبد الله ؟ »

فأخبره برأيه فى اتيان الكوفة وأعلمه بماكتب به مسلم ابن عقيل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟ فوالله لو كان لى مثل شيعتك بالعراق ما تلومت فى شىء »

□

ولعل أنصح الناس له فى هذه المسألة كان عبد الله ابن

عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عبـــاس من الدهاء •• سأله :

ـ ان الناس أرجفوا أنك ســائر الى العراق ، فما أنت صانع ؟

قال :

ـ قد أجمعت السير فى أحد يومى هذين

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

ـ انى أتخوف عليك فى هــذا الوجه الهلاك • ان أهل العراق قوم غدر • أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن ،فان بها حصونا وشعابا ولأبيك بها شيعة

فقال له الحسين :

ـ يا ابن عم !•• انى أعلم انك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير

قال ابن عباس :

ـ ان كنت لابد فاعلا ، فلا تخرج أحـــدا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان

السفر الى العراق

وخرج فى الثامن من ذى الحجة لا ينتظر العيــد بمكة ؛ لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ••

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليـــه

النـــاس ألوفا ألوفا يبايعون الحسين على يديه ·· وبلغوا ثمانية عشر ألفا فى تقدير ابن كثير وثلاثين ألفا فى تقدير ابن قتيبة

وهال الأمر النعمان بن بشير ـ والى الكوفة ـ فحـــار فيما يصنع بمسلم وأتبـاعه وهم يزدادون يوما بعد يوم ، فصعد المنبر وخطب الناس معلنا أنه لا يقاتل الا من قاتله ولا يثب الا على من وثب عليه ··

وتسابق أنصار بنى أمية الى يزيد ينقلون اليه ما يجرى بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومى مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة الى البصرة التى كان يتولاها فى ذلك الحين

وقدم عبيد الله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع اليه عرفاء المدينة ـ أى مشايخ أحيائها ـ فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن فى أحيـائهم من « طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب » ، وأنذرهم « أيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه اليه، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء »

والتمس وجوه المدينـــة من شـيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم · فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانىء بن عروة، فقيل له انه مريض لا يبرح داره ·· وكان يتعلل بالمرض تجنبا للقائه والسلام عليه ··

فذهب عبيـــد الله اليه يعوده ويتلطف اليه ، وجاء فى بعض الروايات انه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو

فى بيت هانىء ، فأبى أن يغتاله وهو آمن فى بيت مريض يعوده

وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى دار شريك بن الأعور ، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث الى هانىء بن عروة يقول له : « ابعث مسلم بن عُقيل يكون فى دارى ليقتل عبيد الله اذا جاء يعودنى » ... فتحين مسلم عن قتله ، وسأله شريك: « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) ، وكرهت أن أقتله فى بيتك » ... قال شريك : « أما لو قتلته لجلست فى الثغر لا يستعدى به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنت تقتله ظالما فاجرا »

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام

وتضطرب الأقاويل فى وقائع هذه الايام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد فى مغالبة مسلم وشيعته ، وانه هرب مرة من المسجد لان الناس بصروا بمسلم مقبلا فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادى فى الناس بشعار الشيعة : « يا منصور ! أمت » . ثم تقدم الى قصر الامارة فى تعبئة كتعبئة الجيش ..

ولم يكن فى القصر الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيد الله وظن انه هالك

قبل أن يدركه الغوث من مولاه • ولكنه تحيل بما فى وسع المستميت من حيلة هى على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره الى كل صوب فى المدينة يعدون ويتوعدون•• وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البرىء بالمذنب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين

مقتل مسلم بن عقيل

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا الى دورهم أو يدخلوا بهم فى زمرة عبيد الله••

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فاذا هو فى خمسمائة من أولئك الآلاف الاربعة •• ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه فى الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقى وحيدا فى المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوى اليه

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقى من تلك الجموع •• فلم يروا أحدا ولم يسمعوا صوتا • فخيل اليهم أنها مكيدة حرب وان القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه• فدعا الى الصلاة الجامعة وأمر المنادين فى أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب ـ

رؤوس العرفاء – والمقاتلة ، صلى العشاء الا فى المسجد »

وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلا : «برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره »

وصاح فى رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير ! ثكلتك أمك ان ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتنى به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواه السكك ·· وأصبح غدا فاستبرىء الدور وجس خلالها حتى تأتينى بهذا الرجل »

وما هى الا سويعات حتى جىء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع ، ووصل الى القصر جريحا مجهدا ظمآن فأهوى الى قلة عند الباب فيها ماء بارد ،فقال له أحد أصحاب عبيد الله : « أتراها ما أبردها !·· والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم ! »

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل ومعها قدح فصب منها فى القدح وأدناه منه ، فاذا هو ينفث الدم فى القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان لى من الرزق المقسوم لشربته »

وأدخلوه على عبيد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته·فأبى أن يصغى اليه ! ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « ان على بالكوفة دينا استدنته سبعمائة درهم ، فبع سيفى ودرعى فاقضها عنى ، وابعث

الى الحسين من يرده ، فانى قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه الا مقبلا »

فعاد عمر الى عبيـــد الله فأفشى له السر الذى ناجاه به وأوصاه أن يكتمه • ثم دعا عبيد الله بالحرسى الذى قاومه مسلم وضربه على رأسه ـ واسمه بكير بن حمران ـ فأسلم مسلما اليه وقال له :

ـ لتكن أنت الذى تضرب عنقه

وصعدوا به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه الى الرحبة وألقيت جثته الى الناس • ثم أرسل برأسه الى يزيد مع رؤوس سراة فى المدينة كان مسلم يأوى اليهم أول مقدمه اليها ، ومنهم هانىء ابن عروة الذى تقدمت الاشارة اليه •••

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل فى التاسع من ذى الحجة ليلة العيد •• وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد، فلم يسمع بمقتله الا وهو فى آخر الطريق

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبـــل دخوله ، فكتب الى أهل الكوفة كتـــابا مع قيس بن سهر الصيداوى يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيهـا شرط عبيـــد الله فاعتقلوه وأشخصوه اليه••فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن على » وينهى الناس أن يطيعوه

فصعد قيس وقال : « أيها الناس •• ان هذا الحسين بن علي خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه ، والعنوا عبد الله بن زياد وأباه •• »

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حالق ، فمات ••

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر •• فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبد الله بن زياد، فألقوا به من شرفات القصر الى الارض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ••

وجعل الحسين كلما سأل قادما من العراق أنبأه بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع »

ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ••

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدا الا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه أن تقدم ولم ينصرف لشأنه •• فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلنا شيعتنا •• فمن أحب منكم أن ينصرف فيلنصرف ، ليس عليه منا ذمام »

فتفرقوا الا أهل بيته وقليلا ممن تبعوه فى الطريق ••

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذي حسم بطلائع جيش عبيد الله

يقـودها الحر بن يزيد التميمى اليربوعى فى ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله فى الكوفة

فأمر الحسين مؤذنه بالأذان لصـــلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

ـ أيها الناس انى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورســـلكم أن أقدم علينا فليس لنا أمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق . فقد جئتكم .. فان تعطونى ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم لقـدومى كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه

فلم يجبه أحد ..

فقال للمؤذن :

ـ أقم الصلاة !

وسأل الحر :

ـ أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلى بأصحابى ؟

فقال الحر :

ـ بل نصلى جميعا بصلاتك

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب ، فبلغها وفرســـان عبيد الله يلازمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليـهم يعظهم وهم يصغون اليه فقال :

ـ أيها الناس ! ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير ما عليـه

بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله . ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالغى ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيرى

« وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم وانكم لا تسلموننى ولا تخذلوننى، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم وأهلى من أهلكم ، فلكم فى أسوة. وان لم تفعلوا ونقضتم عهدى، وخلعتم بيعتى، فلعمرى ما هى لكم بنكير، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم ، والسلام »

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحذره العاقبة وينبئه : « لئن قاتلت لتقتلن ! »

فصاح به الحسين :

ـ أبالموت تخوفنى ! .. ما أدرى ما أقول لك .. ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى
اذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما

وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وخالف مثبورا وفارق مجرما

فان عشت لم أندم ، وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فرده نحو الكوفة • حتى نزلا بنينوى ، فاذا راكب مقبل عليه بالسلاح، يحيى الحر ولا يحيى الحسين ، ثم أسلم الحر كتابا من عبيد الله يقول فيه : « أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله الا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء •• وقد أمرت رسولى أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتينى بانفاذك أمرى والسلام » .

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله ابن زياد ويخشى رقيبه الذى أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره، قال أحد أصحاب الحسين – زهير بن القين :

– انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه • يا ابن رسول الله !•• ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم • فلعمرى ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به • فهلم نناجز هؤلاء

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

– انى أكره أن أبدأهم بقتال

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبى بأرض همذان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى يذكر الديلم اسم أبيه – سعد – فاتح بلادهم ، وقد

وعد بولاية الرى بعد قمع الثورة الديلمية،فلما قدم الحسين الى العراق قال عبيد الله لعمر :

ـ نفرغ من الحسين ثم تسير الى عملك

فاستعفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :

ـ نعم نعفيك على أن ترد الينا عهدنا ..

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه .. فنصح له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ وهو من أكبر أعوان معاوية ـ ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

ـ والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الارض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى اذا أصبح ذهب الى ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغنى فى الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد الا أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية الرى .. فسار على مضض وجنوده متثاقلون متحرجون ، الا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة .. فندب عبيد الله رجلا من أعوانه ـ هو سعد بن عبد الرحمن المنقرى ـ ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل انه من المتخلفين، فأسرع بقيتهم الى المسير

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو منخمسة وعشرين ميلا الى الشمال الغربى من الكوفة . نزل بها فى الثانى من المحرم سنة احدى وستين

وخلا الجو فى الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه فى اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر فى قضية الحسين دون مراجعة من ذى سلطان . وهما عبيد الله بن زياد ، وشمر بن ذى الجوشن

عبيد الله المغموز النسب الذى لا يشغله شيء، كما يشغله التشفى لنسبه المغموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسبا فى الجاهلية والاسلام .. فليس أشهى اليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه

شمر بن ذى الجوشن

وشمر بن ذى الجوشن الأبرص الكريه الذى يمضه من الحسين ما يمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم
وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ، فهما فى هذه الخلة متناصحان متفاهمان ..!

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى يزيد ويمهد له الولاء فى قلوب المسلمين ولو الى حين .. لولا ذلك الضغن الممتزج بالخليقة الذي هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأى مصيب ، ولا لتفكير فى عاقبة بعيدة أو قريبة ..

فالحسين فى أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وابقائه بأعينهم فى مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة

لكنهما لم يفكرا فى أيسر شيء ولا أنفع شيء للدولة التى يخدمانها .. وانما فكرا فى النسب المغموز والصورة

الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير ارغام الحسين واشهاد الدنيا كلها على ارغامه

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه ان الحسين « أعطانى أن يرجع الى المكان الذى أقبل منه أو أن نسيره الى أى ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتى يزيد فيضع يده فى يده »

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده فى يده ·· لأنه لو قبل ذلك لبايع فى مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه الى العراق قد نفوا ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته الناس الى يوم قتله ·· فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد ولا أن يسيروه الى ثغر من الثغور ، ولكنه قال : « دعونى أرجع الى المكان الذى أقبلت منه أو دعونى أذهب فى هذه الارض العريضة حتى ننظر الى ما يصير اليه أمر الناس »

ولعل عمر بن سعد قد تجوز فى نقل كلام الحسين عمدا ليأذنوا له فى حمله الى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما تجر اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا

بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم فى مناهضة الدولة الأموية ..

وأياكانت الحقيقة فى هذه الدعوى فهى تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بمثليهما .. كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذى فطر عليه ، فلا يصدر منهما الا ما يوائم لئيمين لا يتفقان على خير ..

وكأنما جنح عبيد الله الى شئ من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد ، فابتدره شمر ينهاه ويجنح الى الشدة والاعتساف ، فقال له :

ــ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه فى القيادة ثم يخلفه فى الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين ..

فعدل عبيد الله الى رأى شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر ان هو تردد فى اكراه الحسين على المسير الى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد فانى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له

عندى شافعا ... انظر فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون . فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم .. فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام »

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ..

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ، ومضت مئات السنين وهى لا تمحو آثار تلك الايام فى تاريخ الشرق والاسلام

هل أصاب؟

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية .. لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها - ان أصابت - من نحو واحد ينحصر القول فيه ، ولا يأتى الخطأ فيها - ان أخطأت - من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه . وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب الى النقيضين ..

هى حركة لا يأتى بها الا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق ..

هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن تدينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة .. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ..

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة

مساوم من مساومي التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيـــا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب ايمان الناس به دون غيره •• فان قبلتــه الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه ••

هى حركة لا تقاس اذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات، ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان

□

ولا ننس أن السنين الستين التى انقضـــت بعد حركة الحسين ، قد انقضت فى ظل دولة تقوم على تخطئته في كل شيء وتصويب مقاتليه فى كل شيء ••

ان القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة، والتماس العذر له معناه القاء الذنب عليها • وليس بخاف على أحد كيف ينسى الحياء وتبتذل القرائح أحيانا فى تنزيه السلطان القائم وتأثيم السلطان الذاهب • فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذى يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء

انما الحكم فى صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان، وهما البواعث النفسية

التى تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التى مثلت للعيان باتفاق الأقوال

وبكل من هذين المقياسين القوّيين نقيس حركة الحسين فى خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول أنه قد أصاب ..

أصاب اذا نظرنا الى بواعثه النفسية التى تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة

فما هى البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين يوم دعى فى المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هى بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله الى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبنى الانسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذى أغضب يزيد ابن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الانسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد

فأول ما ينبغى أن نذكره لفهم البواعث النفسية التى خامرت نفس الحسين فى تلك المحنة الأليمة ، ان بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التى يضمن لها الدوام فى تقدير صحيح ..

فهى بيعة نشأت فى مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة فى ذلك التشجيع

كان المغيرة بن شعبة واليا لمعـــاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واسناد ولايته الى سعيد بن العاص جريا على عادته فى اضعاف الولاة قبل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشــــام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

ـ لا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال للمغيرة :

ـ أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير اذا أراده أبوه .

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصـــته سانحة وانه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه باعانته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة الى أن يقضى فى أمر هذه البيعة ، وله فى التمهيد لها نصيب

فلما لقى معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

ـ قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

ـ ومن لى بذلك ؟

قال :

ـ أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة ،وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك

فرده معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا باظهار هذه النية ٠٠ ثم استشار زياد بن أبى سفيان ، فأطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

ـ ان أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم ٠٠ ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد ٠ فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فان دركا فى تأخير خير من فوت فى عجلة

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه فى ابنه » ٠ وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك فى البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وانك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وان معاوية أخذ برأى زياد فى التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه،فكانت امرأته «فاختة» بنت قرطة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

ـ ما أشار به عليك المغيرة ؟٠٠ أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم

واشتدت نقمة مروان بن الحكم ـ وهـو أقرب الأقرباء الى معاوية ـ حين بلغته دعوة العهـد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة ، وكتب الى معاوية : « ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيعتـك » ٠ فعزله معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص ٠ فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخـروج وذهب الى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا له :

ـ نحن نبلك فى يدك وسيفك فى قرابك ٠ فمن رميتـه بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه ٠٠ الرأى رأيك ، ونحن طوع يمينك

ثم أقبل مروان فى وفد منهم كثير الى دمشق ، فذهب الى قصر معاوية وقد أذن للناس، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا الباب ٠ ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول ٠ فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بنى أمية من بيعة يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذى تذرع معـاوية الى الخلافة باسمه ٠ فقال لمعاوية :

ـ يا أمير المؤمنين ٠٠ علام تبايع ليزيد وتتركنى ! فوالله

لتعلم أن أبى خير من أبيــه وأمى خير من أمه ، وانك انما نلت ما نلت بأبى

فسرى معاوية عنه ، وقال له ضاحكا هاشا :

– يا ابن أخى ! أما قولك أن أباك خير من أبيه فيوم من عثمان خير من معاوية ٠٠ وأما قولك أن أمك خير من أمه ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتيه الله من يشاء ٠٠ قتـل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك بيزيد ٠ ولكن دعنى من هذا القول وسلنى أعطك ، وولاه خراسان

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملا فى الخلافة بعد معاوية ، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء – وان جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن – لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء وتبشره بالضـمان والقرار

□

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والاكراه ٠٠

وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء وظهر من اللحظات الأولى أن المغيرة بن شعبة كان سمسارا يصافق على ما لا يملك ٠٠ فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف فى غيرهما ، فاذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ،

واذا البصرة تتلكأ فى الجواب وواليها يرجىء الأمر ويوصى بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية فى حياته ، واذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور ، واذا بالحجاز يستعصى على بنى أمية سنوات ، واذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين. ولو وجدت خارجا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز .

بل يجوز أن يقال — مما ظهر فى حركة الحسين كل الظهور — أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين . فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، الا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب .

والحوادث التى تلت حركة الحسين الى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه، لأن الاحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين

ونحن اليوم نعلم من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر فى عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيل الينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء . ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء الا يروا فيها طوالع ملك تعنو له الرؤوس ويرجى له طول البقاء

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد فى الخلافة رضى المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم اياه،

وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم الى سياسته واعتمادهم على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على نقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلا هازلا فى أحوج الدول الى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه اصلاح . وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبايعوا وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبايعوه وان تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن على أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق فى الخلافة وصاحب القدرة عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه، أو الخروج ! لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه

ان بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان فى كف الميزان

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية فى نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وأنه كان رجلا يؤمن أقوى الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالامة العربية قاطبة فى حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد .. فمن كان اسلامه هداية نفس فالاسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت .

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين فى أصغر صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبوه بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة الصنائع والاجراء دون ذلك • فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على الدين فى رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟ وكيف يسام أن يرشح للامامة من لا شفاعة له ولا كفاية فيه الا أنه ابن أبيه ؟

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشئون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ما جمح وتقيم ما انحرف وتملى له فيها عجز عنه • وهذا ابنه القائم فى مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، الا من كان عونا على شر أو موافقا على ضلالة • فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للامامة الا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟

ثم هى خطوة لا رجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة • فاذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج

فملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الاسلامية • ومن طلب منه أن ينصر هذا

الملك فانما يطلب منه أن ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الاحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه في أذهان الناس بالغض من الحسين فى سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه • فكانوا يسبون عليا على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهرونهم على سبه والنيل منه بمشهد من الناس، والا أصابهم العنت والعذاب وشهروا فى الأسواق بالصلب والهوان • فمجاراة هذه الأمور كلها فى مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل فى التغيير والتبديل• فمن أقر هذه السنة فى مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومه قوة عليه

هذه هى البواعث النفسية التى كانت تجيش فى صدر الحسين يوم دعاه أولياء بنى أمية الى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته فى امامة المسلمين ،كائنا من كان القائم بالأمر وبالغا ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة • وهى بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه فى اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج ان كان لابد خارجا فى وقت من الاوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له ايمان

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها ـ اذا نظرنا اليها نظرة واسعة ـ

فهى أنجح للقضية التى كان ينصرها من مبايعة يزيد

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه فى كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجـــل واحد مديد الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وســـتون سنة !.. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن فى جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقا الى الأسماع والقلوب

ولاصابة هذه الحركة فى نتائجها الواسعة دخل فى روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه .. فلم يخامره الشك فى مقتله ذلك العام ، ولا فى عاقبة هذه الفعلة التى ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام

فقال ماربين الألمانى فى كتابه (السياسة الاسلامية) : « ان حركة الحسين فى خروجه على يزيد انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته ويحيى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة »

فان لم يكن رأى الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق لا شك فيه ، ويصدق ذلك – فى رأينا – على حركة الحسين

بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذى يرتضيه،فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحيق ببنى أمية من جراء قتله .. فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه ما لم يكن ليبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه في الحجاز . فقال لهم « ان الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التى لا يبالى راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء

لكنه لم يكن ييأس من اقناع الناس والتفافهم به منذ خطوته الأولى . ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم وأبوا عليه أن ينصرف الى أى منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقا على الكره منه الى عبيد الله بن زياد

وتتباين آراء المتأخرين خاصة فى خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان هو الاحزم والأكرم أم كان الاحزم والأكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو اعراضهم عنه وضعفهم فى تأييده

وليس للمتأخرين أن يقضوا فى مسألة كهذه بعقولهم وعاداتهم ، لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربى وعاداته فى أشباه هذه المواقف . وقد كان اصطحاب النساء والابناء عادة عربية فى البعوث التى يتصدى لها المرء معتمدا القتال دون غيره فضلا عن البعوث التى قد تشتبك فى القتال وقد تنتهى بسلام كبعثة الحسين

فكان المقاتلون فى وقعة ذى قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل ـ أى أحزمتها ـ قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معا يصطحبون الحلائل والذرارى فى غزوات النبى عليه السلام ، وكان مع المسلمين فى حرب الروم صفوة نساء قريش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبى عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة فى غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهى عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفى معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه ان قضى عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم فى أنفسهم وفى أبنائهم وأموالهم ، لأنهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال . فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة فى يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم، اذا غلبوه وأخفق فى مسعاته .. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول

والمسلم الذى ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو

بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية فى حالة الخذلان ،فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذى يوشك أن ينقلب عليه

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التى تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها

وانها قد وصلت الى نتائجها الفعالة من حيث هى قضية عامة تتجاوز الأفراد الى الأعقاب والاجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين أم حربا لبنى أمية

انما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين ننظر اليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهى زاوية العمل الفردى الذى يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين اليه

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ..

وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ..

وهنا غلطة الشهداء ..

بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه الى مرماه ؟

ومن هو الشهيد انلم يكن هو الرجل الذى «يكلف الأيام ضد طباعها» ويصدق الخير فى طبيعة الانسان والخير عزيز والدنيا به شحيحة ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشـدين حيث لاتتسنى خلافة الراشدين،أو حيث تتسنى الدولةالدنيوية التى يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها بوسائلها

فكانت عنايته بالدعـوة والاقناع أعظم جدا من عنايته بالتنظيم والالزام ٠٠

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هى التى أوصى بردها الى أصحابها قبل قتله ٠٠

وتلك عقبة من العقبات التى تعوق الدعوات الكبـار ، ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل ٠٠

□

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه ٠ فلعله كان ميسورا له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبايع الحسـين على يديه

ثلاثون ألفا كما جاء فى بعض الروايات • ففى تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالى الأموى ويستولى عليه وينشىء الحكومة الحسينية فيه • ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد

فاذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا الى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله هذا فى يوم من الأيام الى يديه وكان فى وسعه أن يبطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرا من أعنف أنصاره ••

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه فى رأيه ، أو لأنه اعتقد أن الحق بين وأن الباطل بين فلا حاجة به بعد التمييز بينهما الى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه فى الخلافة قائم على شىء واحد وهو اقبال الناس اليه طائعين ومبايعتهم اياه مختارين • فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفا فى اليقين، فالرأى عنده أن يكتب الى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا اليه

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ..

لم يكن الصراع بين على ومعاوية على هذا الوضوح الذى لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ..

لكنه فى بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذى عينين

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء فى سبيل العقيدة والايمان .. بعد العهد الذى كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه ان خالفوه فى أمر الاسلام .. بعد العهد الذى كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفى أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعاقل والأزواد .. بعد العهد الذى تغير فيه الناس ، وخيل الى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد فى عالم شهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين فى ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا » . والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون »

ان الطبائع الأرضية لا تنخدع فى صلاح الناس ولا

تعجب هذا العجب .. ! لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود !

انها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق ، انها تؤثر القنديل الخافت فى يدها على الكوكب اللامع فى السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع فى السماء، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد

انها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر الى السراب

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ..

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات

وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة

وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين

وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التى يصلح عليها أمر بنى الانسان. فان بنى الانسان ما بهم من غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وأنهم لهم الشهداء

وأنهم لعلى صواب فى المدى البعيد ، وان كانوا على خطأ في المدى القريب .. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاد ..

من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه ، بل هو أبو الشهداء

وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين

فلا جرم يصيب فى المدى البعيد ويخطىء فى المــــدى القريب .. مدى المنفعة التى تناله هو فى معيشة يومه ، وهو المدى الذى لا يأسف عليه ولا ينص الركاب اليه

الحرم المقدس

عرفت قديما باسم « كوربابل » ثم صحفت الى كربلاء ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما وسمها بعض الشعراء

ولم يكن لها ما تذكر به فيأقرب جيرة لها فضلا عنأرجاء الدنيا البعيدة منها ·· فليس لها من موقعها ولا من تربتها ولا من حوادثها ، ما يغري أحدا برؤيتها ثم يثبت فى ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها

فلعل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرا بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود ·· الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل فى زمرة تلك الجيرة بغير حساب

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق اليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله · ومن حقه أن يقترن بتاريخ بني الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت

حقها من التنــويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمى يعــرف لبنى نوعه نصــيبا من القداسة وحظا من الفضيلة . لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الارض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمنــاقب أسمى وألزم لنــوع الانســان من تلك التى اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التى بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهى مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة الجرداء

وليس فى نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الايمان والفداء والايثار ويقظة الضمير وتعظيــم الحق ورعاية الواجب والجلد فى المحنــة والأنفة من الضــيم والشجاعة فى وجه الموت المحتوم .. وهى - ومثيلات لها من طرازها - هى التى تجلت فى حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط فى موطن من المواطن تجليها فى تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون فى جانب منها أشرف ما يشرف به أبنــاء آدم ، لأنها فى الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات

وحسبك من تقويم الأخلاق فى تلك النفوس ، أنه ما من أحد قتل فى كربلاء الا كان فى وسعه أن يتجنب القتــل بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم جميعا آثروا الموت عطاشا جياعا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة ..

أو حسبك من تقويم الأخلاق فى نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه الا أن يكون هو أهلا للاستشهاد فى سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون فى سليقة الشهيد الذى يأتم به الشهداء

نموت معك

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه .. وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

ـ ألسنا على الحق ؟

قال الوالد المنجب النجيب :

ـ بلى والذى يرجع اليه العباد

فقال الفتى :

ـ يا أبه ! فاذن لا نبالى !

وهكذا كانوا جميعا لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون

وأراد الحسين ـ وقد علم أن التسليم لا يكون ـ أن يبقى للموت وحده وألا يعرض أحدا من صحبه . فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم فى كل مرة : « لقد بررتم وعاونتم والقوم لا يريدون غيرى . ولو قتلونى لم يبتغوا غيرى أحدا .. فاذا جنكم الليل فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم »

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم اياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات

والبقاء • وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد: « معاذ الله والشهر الحرام •• ماذا نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أنقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضا للنبل ودريئة للرماح وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة فى الحياة ؟ معاذ الله •• بل نحيا بحياتك ونموت معك •• »

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه ايثارا لنجاتهم ونجاته • ولو خادعوا أنفسهم قليلا لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعا على ذلك

ولم يكونوا جميعا من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التى ترهب العار ولا ترهب الموت • فقال له زهير بن القين : « والله لوددت انى قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك »

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلى عنك ؟ وبم نعتذر الى الله فى أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن فى صدورهم برمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى ، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة • والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك • وأما والله لو علمت أننى

أقتل ثم أحيي ثم أحرق ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بى ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامى دونك..»

وجيء الى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه فى فتنة الديلم ، فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون أساره بغير فداء، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو فى حل من بيعته ويعطيه فداء ابنه . فأبى الرجل أباء شديدا ، وقال : « عند الله احتسبه ونفسى » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك .. لا يكن والله هذا أبدا »

وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الأعلى فى نفس قائدهم الكريم .. يخيل الى الناظر فى أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت فى سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم كله، فلا يدرى أكان فى شجاعته أشجع ، أم فى صبره أصبر ، أم فى كرمه أكرم ، أم فى ايمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه . الا أنه كان يوم الشجاعة لا مراء ، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين - شبل على - فى شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء

ملك جأشه .. وكل شيء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ، ويغرى بالدعة والمجاراة ..

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية وأناة ولم يملكه وثبة واثب الى الغضب أو هيجة مهتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويا

بصيرا ينفض الضـــعف عن عزائمه ، كمـا ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قط فيذلك الموقف المرهوب الا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه ، فقال وهو ينظر الى الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به على ! »

وجلس ليلة القتال فى خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أف لك من خليـــل، كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيـــل والدهر لا يقنـــع بالبديل
والأمر فى ذاك الى الجليـــل وكل حى ســـالك سـبيلى

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألما على ألمه . وسمعته أخته زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلهـــا ، فخرجت اليه من خبائها حاسرة تنادى : « واثكلاه !.. اليوم مات جـدى رسول الله وأمى فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسن .. فليت المـــوت أعدمنى الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين ! »

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذى بات عليه ، وقال لها :

ـ يا أخت ! لو ترك القطا لنام .. ولم يزل يناشدها.. ويعزيها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهـة الموت واباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما قال .. ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها الخباء

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطـــامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب ، وهذه الخلائق العلوية فى صدر

الانســــان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض وكواكب السماء

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين طرفين ، وتباعدها أبعد ما تكون المسافة بين قطبين · فكل ما فيها أرضى مظلم مسف بالغ فى الاسفاف ، وليس فيها من النفحة العلوية نصيب

أللمصادفات نظام وتدبير ·· ؟ !

نحن لا نعلم الا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينها من الوشائج والصلات ·· ولكنها ـ لذلك ـ هى الأعاجيب التى تستوقف النظر لعجبها العاجب ، وان لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير

فجيرة كربلاء كانت قديما من معاهد الايمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد واهرمان ، ولكنه كان فى حقيقته ضربا من المجاز وفنا من الخيال

وتشاء مصادفات التاريخ الا أن ترى هذه البقاع التى آمنت بأورمزد واهرمان حربا هى أولى أن تســمى حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه ··

وهى عندنا أولى بهذه التسمية من حــروب الاســلام

والمجوسية فى تلك البقاع وما وراءها من الارض الفارسية لأن المجوسى كان يدافع شيئا ينكره ، ففى دفاعه معنى من الايمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن الجيش الذى أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشا يحارب قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . اذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفح عن عقيدة غير عقيدة الاسلام ، الا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ، ولا نخالهم كثيرين

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق .. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون ..

ومن ثم كانوا فى موقفهم ذاك ظلاما مطبقا . ليس فيه من شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء .. فكانوا حقا فى يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور

أقربهم الى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرهبة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء ..

وكان منهم أناس كتبوا الى الحسين يستدعونه الى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عما ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم ان

سألوه فى شأن مجيئه اليهم : اننى جئتكم ملبيا ما دعوتم اليه !

وركب أناسا منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيما اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بنى أبان بن دارم كان يقول :

ـ قتلت شابا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة منذ قتلته الا أتانى فيأخذ بتلابيبى حتى يأتى جهنم فيدفعنى فيها ، فأصبح فما يبقى أحد فى الحى الا سمع صياحى

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ما كدت أعرفك » . وكان يعرفه جميلا شديد البياض ..

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين فى المعمعة، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لانهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ،ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم اياه . فاذا هم يحاربون رأيهم الذى يدينون به،ووليهم الذى يضمرون له الحرمةوالكرامة، وفى ذلك خزيهم الأثيم

☐

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم فى أيام كربلاء ..

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع الى التمثيل والتنكيل أو

التبرع بالايذاء حيث لا تلجئه الضرورة اليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء بالأمر الذى يلجىء اليه الجبن أو يلجىء اليه طلب المال ، وقد حدث فى أيام كربلاء من أمثال هذا البغى اللئيم شىء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بنى أمية !

وينبغى أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر فى النفس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بها العنان

فالرجل الخبيث المعرق فى الخباثة قد يتصرف فى خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالى أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء . ولكن أربعة الآلاف لا يتصارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علالة . وانما شأنهم فى هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطاعوا ، ليظهروا فى ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون لحظة فى صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده ..

وتلك لجاجة المغالطة فى الشعور ..

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم .. يحاول الرجل أن يجتنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد

خلع العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء »

وتحب المرأة أن تستحيي وتتوارى من المسبة فى هواها، ثم يغلبها هواها فاذا هى قد ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التى لم تنازع نفسها قط فى هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار

واندفاع المتهجمين على الشر فى حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضى بها شريعة القتال ، لهو الاندفاع الذى يسبر لنا عمق الشعور بالاثم فى نفوس أصحاب يزيد • وقد رأينا من قبل عمق الشعور بالحق فى أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والايذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمر بن ذى الجوشن ، ومن جرى مجراه •• فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل اليه

على أنها ـ بعد كل هذا ـ حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام •• فشأنها على أية حال أن تصبح مجالا من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت فى ذلك أقصى مدى الطرفين

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة ، أن نتقصى أوائل القتال ونتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها •• فان الاقوال فى سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كان

هذا الترتيب فى رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد

الا أن الترتيب الطبيعى يستبين للعقل من سبب الوقوف في ذلك المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش الىالتسليم، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منع الفتى هينا فجر عظائما وحمى نمير الماء فانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء فى بادىء الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر بن سعد لم يكونوا على جزم بما يصنعون في مواجهة الحسين وصحبه •• فلما اندفع بعض أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأداوى ، مانعهم القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفا وحيرة،فشربوا وملؤا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء الى حين

والظاهر أنالشر كله كان فيحضور شمر بنذى الجوشن على تلك الساحة ، متربصا كل التربص بمن يتوانى فى حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وامارة الرى بعد عزل عمر بن سعد بن أبى وقاص •• فبطل التردد شيئا فشيئا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا الى الماء • ولبثوا أياما وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة

وفى ذلك المأزق الفاجع نضحت طبائع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية .. فاقترفوا من خسة الأذى ما تنـــزه عنه الوحـــوش الضاريات،وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتنـــدى له الوجوه ، ونكاد نمســـك عن تسطيره أسفا وامتعاضا لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة، وبيان لما يلى من وقعها فى النفوس وتسلسل تراتها الى أمد بعيد

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنه رأى ولده عبد الله يلتوى من ألمه وعطشه وقد بح صوته من البكاء، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم : « اتقوا الله فى الطفل ان لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوســـه ، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران : « خذ اسقه هذا » .. فنفـــذ السهم الى أحشائه !

وكانوا يصيحون بالحسين متهاتفين : « ألا ترى الى الفرات كأنه بطون الحيات ؟ ! .. والله لاتذوقه حتي تموت ومن معك عطشا »

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع فى فمه .. فانتزعه الحســـين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم ، فرمى به الى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « ان تكن

حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من القوم الظالمين ! »

وقد كان منع الماء ــ قبل الترامى بالسهام ــ نذيرا كافيا بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة .. ولكنه رأى شمر بن ذى الجوشن ــ أبغض مبغضيه المؤلبين عليه ــ يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن يبدأهم بعداء

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسـوء الدخلة فى الدفاع عن مولاهم ، وعلم أنهم لا يخلصون فى حبه ولا يؤمنون بحقه وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة .. فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من سهام القتال .فخرج لهم يوما بزى جده عليه السلام متقلدا سيفه لابسا عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلا على صدق فراسته فيهم،لأن رؤساءهم ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ الى قلوبهم ويلمس مواقع الاقناع من ألبابهم . فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقـوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التى تغضى عنها الأبصار وتعنو لها الجباه

ولكنه صابرهم حتى ملوا ومل اخوانهم ضجيجهم هـذا الذى يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقـة

بدعواهم عند اخوانهم ٠٠ فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعد الحمد والصلاة : « انسبونى من أنا ٠٠ هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟٠٠ أو لم يبلغكم ما قال رسول الله لى ولأخى: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ ويحكم!٠٠أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته؟»

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم خرجوا لحربه فى جيش ابن زياد ٠ فقال : « يا شبيث بن الربعى! يا حجار بن أبجر ! يا قيس بن الأشعث ! يا يزيد ابن الحارث! ياعمر بن الحجاج!٠٠ ألم تكتبوا الى أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنبات، وانما تقدم على جند لك مجند ؟»

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لاقناع ، وتحولت الى صفة فئة منهم تعلم انها تتحول الى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال .

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل الاحتكام الى السيف٠٠فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات فى أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه وتعرض لهم قائلا : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ٠ ان حقا على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن اخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة ٠٠ ان الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر

ما نحن وأنتم عاملون، وانا ندعوكم الى نصر حسين وخذلان الطاغية بن الطاغيـــة عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهما الا سوءا : يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانىء بن عـروة وأشباهه »

فوجم منهم من وجم وتوقح منهم من توقح على ديدن المريب المكابر اذا خلع العذار ولم يأنف من العار، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله ابن زياد

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى معسكر الحســين كانوا كثيرين أو متلاحقين • ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد وهو الحر بن يزيد الذى أرسلوه فى أول الأمر ليحلىء الحسين عن دخـــول الكوفة ، وقد كان يحسب أن عمله ينتهى الى هذه المراقبة ولا يعـــدوها الى القتال وسفك الدم • فلما تبين نية القتال أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلا قليلا وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد •• حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال له :

ـ والله ان أمرك لمريب •• ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك

فباح له الرجل بما فى نفسه وقال له :

« انى أخير نفسى بين الجنة والنار ولا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت أو حرقت» • ثم ضرب فرسه ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلا :

ـ لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وانى قد جئتك تائبا مما كان منى الى ربى، مؤاسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك !

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون ايمانه ويودون لو يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم الى ذلك المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر فى أسباب ندمه ، لا لأنه ينقص عددهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال •• فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد فى فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد على العقل أن يصدق فى هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدبا يغلب شعور الجماعة وايمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوى، ويهون عليه قتل سبط النبى فى هذا السبيل ، وكيف وأن منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه اليه ليقود « الجند المجند » الى قتال يزيد ؟ فكلامهم فى البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بألسنتهم ولا يستر ما فى طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج فى مكانه وحركته القدوة التى يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقا وأشدهما حيرة وأعجلهما

الى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى العسكرين

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئنا الى حقه يلقى الموت فى سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة الى هذا المصير ..

والعسكر الآخر أكبر العسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه فى ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب ، يحز فى الأعصاب ويقذف بالمرء إلى الخلاص كيفما كان الخلاص

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهما فى الفضاء كأنه كان متشبثا بصدره فاستراح منه بانطلاقه..

فزحف الى مقربة منمعسكر الحسين، وتناول سهما فرماه عن قوسه الى المعسكر وهو يصيح :

ـ اشهدوا لى عند الأمير اننى أول من رمى الحسين ..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل فى نية القوم ، وقام الحسين وهو ينظر الى السهام وينظر الى أصحابه فقال :

ـ قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم ..

وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره اياها قد تريث حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبا لا خلاف فيه ..

فاختار له رابية يحتمى بها من ورائه ، ووسع وهدتها

حتى أصبحت خندقا لا يسهل عبوره •• فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم فى كثرتهم التى ترجح عدة صحبه ستين ضعفا قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه .

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا •• وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الابل ويحملون صنوفا مختلفة من السلاح ••

ومع هذا التفاوت البعيد فى عدد الفريقين ، كان العسكر القليل كفؤا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التى كانت دعوة مجابة فى ذلك العصر ، اذا اختارها أحد الفريقين ••

فان آل على جميعا كانوا من أشهر العرب - بل من أشهر العرب والعجم - بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذى صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم فى زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان فى أرض الروم يفخر به أهلها •• فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه • فجلس محمد بن الحنيفة وطلب من ذلك الجبار الرومى أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلا لصلابة أعضائه وشدة أسره • فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الارض مرات

والحسين رضى الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل على ممن ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش

وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤا لمبـــارزة الأنداد واحدا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين عـلى المبارزة • ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون فى منـــازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم له شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمى بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتـــواتر ، لأن مزاملة الحسين فى مثل تلك الرحلة هى وحدها آية عـــلى الشجاعة فى ملاقاة الموت وكرم النحيزة فى ملاقاة الفتنة والاغراء •• فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هـؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم فى الغلب بضعيف

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثـــوا على الركب ينتظرونها •• فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفـل مولية بفرسانها ••

فعدل الفريقان الى المبارزة ، فلم يتعرض لهـــا أحد من جيش ابن زياد الا فشل أو نكص على عقبية ، فخشى رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التى لا أمل لهم فى الغلبة بها ، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه :

ــ أتدرون من تقاتلون ؟•• تقاتلون فرسان المصر وقوما مستميتين • لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليل •• لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم

فأستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة

فلما برز عابس بن أبى شبيب الشاكرى بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدا منه . فقال لهم عمر :

ـ ارموه بالحجارة

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهى تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة ابن قيس مقدم الفرسان فى جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلى هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ؟ ابعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندى ممن عدل الى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمى النبال والسهام ، جثا بين يدى الحسين وأرسل مائة سهم لم يكد يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات

وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة فى القتال وهجمة على الموت ، ومنهم الحر بن يزيد الذى تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول الى صفة .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم

رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعا وأقتلها نبلا حتى سقط مثخنا بالجراح وهو ينادى الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله »

ولم يكن من أصحاب الحسين الا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلى يكتب اسمه على أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطىء مرماه . فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه، فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثنى عشر رجلا سوى من جرحت ، ولو بقيت لى عضد وساعد لزدت »

مصرع الحسين

واستهدف الحسين رضى الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون الا بين يديه. وكلما سقط منهم صريع ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التى أوى اليها النساء والاطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذوا فى احراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم بصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

ــ دعوهم يحرقونها •• فانهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه فى تلك المحنة المتراكبة التى تعصف بالصبر وتطيش بالألباب. •• وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء • فانه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقى باله الى حركات القوم ومكائدهم ، ويدبر لرهطه ما يحبطون بك تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم •• ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم • ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله الى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون فى حشرجة الصدور ما هم فيه •• فيطلبون الماء ويحز طلبهم فى قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع الى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة •• ويقول فى أثر كل صريع : « لا خير فى العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ••

وانه لفى هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب •• اذا بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب، واذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين الى الاطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير

وكان غلام من آل الحسين ـ هو عبد الله بن الحسن أخيه ـ ينظر من الأخبية ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام الى عمه وصاح فى براءته بالرجل :

ـ يا ابن الخبيثة .. أتقتل عمى ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها .. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع من يليه

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلا ويشق الصفوف وحيدا ، ويهابه القريبون فيبتعدون ، ويهم المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تحرجوا من قتله ، وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذى الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

ـ ويحكم ! .. ماذا تنتظرون بالرجل ؟ أقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..

فاندفعوا اليه تحت عينى شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة بن شريك التميمى على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت به بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل

والسهام،وأحصاها بعضهم فى ثيابه فاذا هى مائة وعشرون

ونزل خولى بن يزيد الاصبحى ليحتز رأسه فملكته رعدة في يديه وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

ـ فت الله فى عضدك !

واحتز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه فى رعدته ،سخرية به وتماديا فى الشر ، وتحديا به لمن عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفســه بفعله وصفا لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغنا لا معني له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام، ويجعلوه تحديا مكشوفا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولكنهم يبلغون به مأربهم اذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر اليها منحدرون كثيرون

فلم يكن فى عسكر الحسين كله الا رمق واحد من الحياة باق فى رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبى المطاع أصــدق الانصار وأنبل الابطال ..

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغــير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفــوس الكثيرات فاذا هى حسبها من شرف ومجد وثناء

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذى أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع • فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحم الختام ، ولم يخطر له أنه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شىء فى تلك اللحظة العصيبة الا أن يجاهد فى القوم بما استطاع ، بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شىء يجاهد به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح •• ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذى لا يفر من شىء ولا يبالى من يصيب وما يصاب • فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التى كانت خليقة أن تمتد اليه ، وانطلق هو يثخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم • فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان ••فكان هذا حقا هو الكرم والمجد فى عسكر الحسين الى الرمق الاخير

خسة ووحشية

وكان حقا لا مجازا ما توخيناه حين قلنا أنهما طرفان متناقضان ، وأنها حرب بين أشرف ما فى الانسان وأوضع ما فى الانسان

فبينما كان الرجل فى عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الاخير فى سبيل ايمانه ، اذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم فى رأيهم ـ قبل رأى غيرهم ـ من أجل

غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جـــوع • فلو كان كل ما فى عسكر الحسين ذهبا ودرا لما أغنى عنهم شـــيئا وهم قرابة أربعة آلاف •• ولكنهم ، ما استيقنوا بالعاقبة ـ قبل أن يسلم الحسين نفسه الاخير ـ حتى كان همهم الى الاسلاب يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النســـاء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلى والثياب التى على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة • وانقلبوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها • ثم ندبوا عشرة من الفرســـان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره

وقد يساق الغنم هنا معذرة للاثم بالغا ما بلغ هذا مـن العظم ، وبالغا ما بلغ ذاك من التفاهة • لكنهم فى الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع فى مغنم كبير أو صغير • فحرموا الرى على الطفل الظامىء العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلا من الماء ، وقتلوا من لا غرض فى قتله وروعوا من لا مكرمة فى ترويعه •• فربما خرج الطفل من الاخبية ناظرا وجلا لا يفقه ما يجرى حوله ، فينقض عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن فى الذى حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء • فقد قتل فعلا فى كربلاء كل كبير وصغير من سلالة على رضى الله عنه ، ولم ينج من

ذكورهم غير الصبى على زين العابدين ·· وفى ذلك يقول سراقة الباهلى :

عين جودى بعبـــرة وعويل واندبى ماندبت آل الرسول
سبعة منهـــم لصلب عـــلى قد أبيدوا وسبعة لعقيـــل

وما نجا على زين العابدين الا بأعجوبة من أعاجيب المقادير، لأنه كان مريضا على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد · فلما هم شمر بن ذى الجوشن بقتله ، نهاه عمر بن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحم أمام النساء ــ وقد كان له نسب يجتمع به فى عبد مناف ــ واما توقعا لموته من السقم المضنى الذى كان يعانيه ·· فنجا بهــذه الاعجوبة فى لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده، ولولا ذلك لباد .

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الارض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كمــا صلوا على جثث قتلاهم ·· ومروا بالنســـاء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضى الله عنها :

ــ يا محمداه !·· هذا الحسين بالعراء وبناتك ســبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهــم ·· فبكى العدو كما بكى الصديق !

لم تنقض فى ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبى محمد عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذى بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهــم من الظلمة الى النور ، ومن حياة التية فى الصحراء الى حياة

عامرة يسودون بها أمم العالمين • ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، واذا هم فى موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفى عليها الصبا»

فخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الانحاء •• فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله ـ شرفا ولا وحشة ـ فى الآباد بعد الآباد

وكان يوم المقتل فى العاشر من المحرم •• فكان القمر فى تلك الليلة على وشك التمام • فحفروا القبور على ضوئه وصلوا على الجثث ودفنوها ثم غادروها هناك فى ذمة التاريخ • فهى اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحى الآدمى بين سائر الاحياء

فما أظلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء

جريرة كربلاء

موطن الرأس

اتفقت الاقوال فى مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما تعدد فى موطن الرأس الشريف ..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة الى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..

ومنها أنه أُرسل الى عمرو بن سعيد بن العاص والى يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..

ومنها أنه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته،فدفن بدمشق عند باب الفراديس ..

ومنها أنه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل الى عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقى بها حتى استولى عليها الافرنج في الحروب الصليبية .. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله الى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعرانى فى طبقات الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة الى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف ووضعه فى كيس من الحرير الاخضر على كرسى من الابنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن فى المشهد الحسينى قريبا من خان الخليلى فى القبر المعروف »

وقال السائح الهروى فى الاشارات الى أماكن الزيارات :
« وبها ـ أى عسقلان ـ مشهد الحسين رضى الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة »

وفى رحلة ابن بطوطه أنه سافر الى عسقلان « وبه المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام، قبل أن ينقل الى القاهرة »

وذكر سبط بن الجوزى فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات، وأنه لما جىء به بين يدى يزيد بن معاوية قال : « لأبعثنه الى آل أبى معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقة • فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو الى جانب سوره هناك

فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ستة فى ست مدن هى : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة • وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية • وتكاد تشتمل على مداخل العالم الاسلامى كله من وراء تلك الاقطار ، فان لم تكن هى الاماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الاماكن التى تحيا بها ذكراه لا مراء

وللتاريخ اختلافات كثيرة نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لان نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال • ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام • فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف • وانما أصبح الحسين ـ بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة

النبوية – معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قـــريب أو بعيد من قبره . وان هذا المعنى لفى القاهرة ، وفى عسقلان، وفى دمشق ، وفى الرقة ، وفى كربلاء ، وفى المدينـــة ، وفى غير تلك الاماكن سواء

وقاحة بن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد ..

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء الى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها فى أحياء الكوفة ثم ترسل الى يزيد

وكانت فعلة يدارونها بالتـــوقح فيها على سنة المأخوذ الذى لا يملك مداراة ما فعل . فبات خـولى بن يزيد ليلته بالرأس فى بيته ، وهو يمنى نفسه بغنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله »

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنـــده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله ، فرآه ينكث ثنايا الرأس حين وضع أمامه فى أجانه . فصاح به مغضبا :

– ارفـع قضيبك عن هاتين الثنيتين .. فوالذى لا اله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما، وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :

– لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، لضربت عنقك!

فخرج زيد وهو ينادى فى الناس غير حافل بشىء :

ـ أنتم معشر العرب العبيد بعد اليـــوم ٠٠ قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم

وأدخلت السيدة زينب بنت على رضى الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين واماؤها ٠٠ فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها ٠ فسأل ابن زياد :

ـ من هذه التى انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبــــه ٠٠ فأعاد سؤاله ثلاثا وهى لا تجيبه ، ثم أجابت عنها احدى الاماء :

ـ هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاجترأ ابن زياد قائلا :

ـ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم ٠٠

وقـــد كانت زينب رضى الله عنها حقا جـــديرة بنسبها الشريف فى تلك الرحلة الفاجعة التى تهد عزائم الرجال٠٠ كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت على وأخت الحسين ٠ وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسينى من الذكـور ٠٠ ولولاها لانقرض من يوم كربلاء

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا ٠٠انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمدلله

فقال ابن زياد :

ـ قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة

فغلبها الحزن والغيظ من هــذا التشفى الذى لا ناصر لها منه ، وقالت :

ـ لقد قتلت كهلى، وأبدت أهلى ، وقطعت فرعىواجتثثت أصلى ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت

فتهاتف ابن زياد ساخرا وقال :

ـ هذه سجاعة ٠٠ لعمرى لقد كان أبوها سجاعا شاعرا

فقالت زينب :

ـ ان لى عن السجاعة لشغلا ٠٠ ما للمرأة والسجاعة ؟

على زين العابدين

ثم نظر ابن زياد الى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله :

ـ من أنت ؟

قال : على بن الحسين

قال : أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟

قال : كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله

فقال على : الله يتــــوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله

فأخذت زيادا عزة الاثم وانتهره قائلا :

ـ وبك جرأة لجوابى !

وصاح الخبيث الأثيم بجنده :

ـ اذهبوا به فاضربوا عنقه

فجاشت بعمة الغلام قوة لا يردها سلطان ولا يرهبها سلاح ٠٠ لانها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة، فاعتنقت الغلام اعتناق من اعتزم ألا يفارقه الا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لئن قتلته لتقتلني معه ٠ فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجبا :

ـ يا للرحم ٠٠ انى لأظنها ودت انى قتلتها معه

ثم قال : « دعوه لما به » ٠٠ كأنه حسب ان العلة قاضية عليه

وعلى هذا هو زين العابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد فى الطبقات : «ثقة كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا» ، وكما قال يحيى بن سعيد: « أفضل هاشمي رأيته فى المدينة »

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتى ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين فى الكوفة وأرباضها ، أنفذه ورؤوس أصحابه الى دمشق مرفوعة على الرماح ٠ ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب ، وفى الركب على زين العابدين مغلول الى عنقه يقوده شمر بن ذى الجوشن ومحضر بن ثعلبة ٠٠ فتلاحق الركبان فى الطريق ودخلا الشام معا الى يزيد

وتكرر منظر القصر بالكوفة فى قصردمشق عند يزيد ٠٠ ولا نستغرب أن يتكرر بعضـــه حتى يظن أنه قد وقع فى التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة فى هـــذا المقام تستوحى ضربا واحدا من التعقيب وضربا واحدا من الحوار

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتـلة فى كربلاء حين بلغتهم وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لهام بجنب الطف أدنى قـــــرابة
من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل
ســـمية أمسى نسلها عـــدد الحصى
وبنت رســول الله ليست بذى نسل

فأسكته يزيد ٠٠ وقال وهو يشـــير الى الرأس وينكث ثناياه بقضيب فى يده : « أتدرون من أين أتى هذا ؟ ٠٠ أنه قال : أبى على خير من أبيه وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهـذا الأمر ٠ فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليـــوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء »

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية فى رده على حجج عـلى فى الخلافة ٠٠ ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمة بنت الحسين ـ

وكانت جارية وضيئة ـ فقال ليزيد : « هب لى هـــذه » ، فأرعدت وأخذت بثياب عمتها •• فكان لعمتهـــا فى الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذيادا عن أخيهـا زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

ـ كذبت ولؤمت •• ما ذلك لك ولا له

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لى •• ولو شئت لفعلت »

قالت : « كلا والله •• ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا »

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اياى تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك »

قالت : « بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك »

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله »

فقالت : « أنت أمير تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك »

فأطرق وسكت •••

وأدخـــل على بن الحسين مغلولا ، فأمر يزيد بفك غـله وقال له :

ـ ايه يا ابن الحســين •• أبوك قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت ••

قال على :

ـ ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها • ان ذلك على الله ليسـير ، لكيلا

تأسوا عـلى ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » • فتلا يزيد الآية : «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » • ثم زوى وجهه وترك خطابه ••

وكان لقاء نساء يزيد خيرا من لقائه •• فواسين السيدة زينب والسـيدة فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن اليهن مثله وزيادة عليه ••

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ الى النعمان ابن بشير واليه الذى عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين •• وأمره أن يسير آل الحسين الى المدينـة ويجهزهم بما يصلحهم • وقيل أنه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة •• أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألنى خصـلة أبدا الا أعطيته اياها ، ولدفعت الحتف عنـه بكل ما اسـتطعت ولو بهلاك بعض ولدى • ولكن الله قضى ما رأيت يا بنى! •• كاتبنى من المدينة، وأنه الى كل حاجة تكون لك »

تبعة يزيد

والناس فى تقدير التبعة التى تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب واهواء ، يرجع كل منهم الى مصدر من مصـادر الرواية فيبنى عليه حكمه ••

فمنهم من يرى أنه برىء من التبعة كل البراءة •• ومنهم من يرى أنه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها •• ومنهم من يقول انه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء

والثابت الذى لا جدال فيه ، أن يزيد لم يعاقب أحدا من ولاته كبر أو صغر على شىء مما اقترفوه فى فاجعة كربلاء ، وأن سياسته فى دولته بعد ذلك كانت هى سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحـــدة مما حدث في كربلاء • فاستباحة المدينة ــ دار النبى عليه السلام ــ وتحكيم مسلم بن عقبة في رجالها ونسائها ، ليست بعمـــل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره •• وما زال يزيد وأخلافه يأمرون الناس بلعن على والحسين وآلهما على المنابر فى أرجاء الدولة الاسلامية ، ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصـواب عقابهم بما أصابهم • ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب في رأى لاعنيه

ومن أفرط فى سوء الظن ، رجح عنـده أن عبيد الله بن زياد كان على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملى لهم فى هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك فى بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولاته ثم ينصل منها ويلقى بتبعتها عليهم • ولو لم يكن ذلك لكان عجيبا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله الى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه •• فقد كان الزمن الذى انقضى منذ خروج الحسين من مكة الى نزوله بالطف على الفرات كافيا لبلوغ الخبر الى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضرورى فى هذا الموقف لوالى الكوفة وغيره من الولاة ، فان لم يكن الأمر تدبيرا متفقا عليــه فهو المساءة التى تلى ذلك التدبير فى السوء والشناعة ، وهى مســاءة التهاون الذى

لا تستقيم على مثـــله شئون دولة . وقد روى ابن شريح اليشكرى أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلى الحسين فانه أشار الى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه

ويبـــدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب الى الظن بايعازه وتدبيره .. لانه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعبثه ، وأنه ربما ارتاح فى سريرته بادىء الأمر الى فعلة ابن زياد وأعوانه .. ولكنه ما عتم أن رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد الى المحاســـنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن فى يقظته على هذا معتصما بالحكمة والسداد

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر فى بيته قبل عاصمة ملكه .. فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نســـاؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصـــالح معاوية فكان يقول اذا سئل : « نبكى على بنى أمية لا على الماضين من بنى هاشم »

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جـــريرة ، ولن تهون جريرتها في الحاضر القريب ولا في الآتى البعيد ..

والواقع أنها قد استتبعت بعدها جرائر شتى لا جريرة واحدة ، وما تنقضي جرائرها الى اليوم ..

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة فى ثورة حنق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود .. لأنهم حملوا اليها خبر

الحسين محمل التشهير والشماتة . وضحك واليهم عمرو ابن سعيد حين سمع أصوات البكاء والصراخ من بيوت آل النبى ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجت نساء بني زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرتب

وكانت بنت عقيل بن أبى طالب تخرج فى نسائها حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون ان قال النبى لكم :
ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى
منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو بن سعيد : « ناعية كناعية عثمان »

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد فى سقيه وسقى آل بيته .. ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم فى تلفيق « المظاهرات الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والأسى الدفين . وجعلوا همهم كله أن يكرهو القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المغتصب ليزيد. فحملوا الى دمشق وفدا من أشراف المدينة لم يلبثوا أن عادوا

اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة : « أنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب »

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الانصارى وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : «لو لم أجد الا بنى هؤلاء – وكان له ثمانية بنين – لجاهدت بهم .وقد أعطانى وما قبلت عطاءه الا لأتقوى به »

. والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة ، فأخرج المدنيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته

وبدا فى ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرا ولا قليلا من عبرة كربلاء ، لانه سلط على أهلها رجلا لا يقل فى لؤمه وغله وسوء دخلته، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ، وهو مسلم بن عقبة المرى . فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام ان لم يبادروا الى طاعته ، وكان شرطه الذى سامهم اياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الايام الثلاثة التى انتظر فيها طاعتهم « انهم يبايعون أمير المؤمنين على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء »

واذا كان شىء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح

فى الظلم من استباحة الارواح والاعراض فى جوار قبر النبى عليه السلام •• فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسـلم بن عقبة ، كأنه يلقى على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذى أبلاه، ولم يبل ما فى طويته من رجس ومكيدة• «فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الاقدام فى الدم وقتل أبناء المهاجرين والانصار » .

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » • ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الاعراض حتى يلتذ بأثارة الآمال والمخـاوف فى نفوس صرعاه قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل ابن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله : « أعطشت يا معقل ؟ حوصوا له شربة من سويق اللوز الذى زودنا به أمير المؤمنين » •• فلما شربها قال له : «أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا••وأمر بضرب عنقه••»

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الانصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ••

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله •• دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الانصار ومعها صبى لها • فقال : « هل من مال ؟ »

قالت : « لا •• والله ما تركوا لنا شيئا ».

قال : « والله لتخرجن الى شـيئا أو لأقتلنك وصبيك هذا »

فقالت له : « ويحك ٠٠أنه ولد ابن أبى كبشة الانصارى صاحب رسول الله »٠فأخذ برجل الصبى والثدى فى فمه، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الارض

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التى قتل فيها أولئك الالوف من النسـوة والاطفـال والآباء والأمهات ٠٠

وقد مات هذا السفاح وهو فى طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة ٠٠ فدفن فى الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التى حاقت بكل من مد يدا الى الحسين وذويه ٠٠

فسلط الله على قاتلى الحسين كفؤا لهم فى النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذى يعرفونه ٠ وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين ٠ فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم فى نصرته ، وأن يتعاهدوا على الأخـذ بثأره فلا يبقين من قاتليهأحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال القبر فى العراء٠٠

فلم ينج عبيد الله بن زياد، ولا عمر بن سعد ، ولا شمر ابن ذى الجوشن، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولى بن يزيد ،

ولا أحد ممن أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى أو الاحياء ..

وبالغ فى النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين،وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله.. فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهـــذه المثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين فى النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة . فكان بلاؤهم بالمختار عدلا لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار

ولحقت الجريرة الثـالثة بأعقاب الجريرة الثانية فى مدى سنوات معدودات .. فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره لبنى أمية الى أيام عبد الملك بن مروان،وكان أحرج الفريقين من سيق الى أحرج العملين . وأحرج العملين ذاك الذى دفع اليه ــ أو اندفع اليه ــ الحجاج عامل عبد الملك .. فنصب المنجنيق على جبـال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى على ما تركه منهـا جنود يزيد بن معاوية .. فقد كان قائده الذى خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق .

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بنى أمية ، وخرج لهم السفاح الاكبر وأعوانه فى دولة بنى العباس .. فعموا بنقمتهم الاحياء والموتى ، وهدموا الدور، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختـار

ابن أبى عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضرباتأمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين ·· فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنـــازعون بشيء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتى ذهبوا بهـــا مضروبين الى آخر الزمان

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء ·· فاذا بالدولة العريضة تذهب فى عمر رجـــل واحد مديد الايام ، واذا بالغالب فى يوم كربلاء أخسر من المغلوب اذا وضعت الاعمار المنزوعة فى الكفتين

نهاية المطاف

من الظافر ؟

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..

وأثقل منــــه فى الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاساءة ، ويجزى المسيء بالاحسان

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والاخلاق، ووجهة للشريعة والدين

والجزاء الحق هو الوجهة الواحــــدة التى تلتقى فيها كل هذه المقاصد الرفيعة .. فاذا بطل الجزاء الحق ففي بطلانه الاخلال كل الاخـــلال بمعنى التــاريخ والاخلاق ، ولباب الشرائع والاديان . وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الانسانى بالتشويه والخسار

والجزاء الحق غرض مقصـــود لذاته يحرص عليه العقل الانسانى كرامة لنفسه ويقينا من صحتــه وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضا للبصر يرتاح الى تحقيقه ويحزن لفواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقــاب ، لان النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كريه

ولا يستهدف هــــذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التى تزرى بكرامة العقل الانسانى ، كاستهدافه لها وهو

فى مصطدم التضحية والمنافع ، أو فى الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ..

ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الاولى ان الرجل قد أضاع كل شىء وانهزم ، وهو فى الحقيقة غانم ظافر

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شىء وانتصر وهو فى الحقيقة خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لانه المدخل الذى يفضى الى الجزاء الحق والنتيجة الحقة ، وينتهى بكل عامل أفلح أو أخفق فى ظاهر الأمر الى نهاية مطافه وغاية مسعاه فى الأمد الطويل

□

وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن على ويزيد ابن معاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص الجزاء الحق فى أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح فى أخبار الامم شرقا وغربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها ، وفى تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ..

فيزيد فى يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذى لا يشوبه خذلان ..

وحسين فى ذلك اليوم هو المخذول الذى لم يطمح خاذله من وراء الظفر به الى مزيد ..

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ..

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ..

وهـذا الذى قصدنا الى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد فى أطوار هذا الوجود

ولسنا نقول أن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان والمآرب الارضية ، فان لهذا الصراع لألوانا تتعدد ولا تتكرر على هذا المثال ، وان له لعناصر لم تجتمع كلها فى طرفى الخصومة بين الرجلين ، وأشواطا لم تتخذ الطريق الذى اتخذته هذه الخصومة فى البداية أو النهاية

ولكننا نكتفي بحقيقة واحدة توجب الاعتبار بهذه الخصومة وحدها وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهى أن مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعا بين خلقين خالدين ، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقابا غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلى من الأحقاب ، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه ..

فاذا سعى أحد بالحيلة فخدع النـاس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك فى استلاب السـمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ..

واذا خسر أحد حيـاته فى سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة فى السمعة والعطف والثناء

فلو جاز هذا لكان العطف الانسانى أزيف ما عرفناه فى هذه الدنيـا من الزيوف ، لان خديعة واحـدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف فى العـروض الاخرى الا وهو ينطلى يوما وينكشف بقية الايام

واذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبـه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتـالون وخسر نوع الانسان

واذا كانت خسارة المرء فى سبيل ايمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالاحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه فى طلابه

فكفى الواصل ما وصل اليه ..

وكثير عليه أن يطمع عنـد الخلف والسلف فيما أدخرته الانسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون .

وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسـين ويزيد ..

فاذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ،

فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء ‥ ولكنه ورث المنافع التي يشترى بها الايدى والسيوف ، فجال بها جولة رابحة فى كفاح الضمائر والقلوب

فينبغى ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح ‥ فينبغي أن يقف به الربح عند ذاك ، وينبغى للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا أجورهم ، فينبغى أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الاجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقيه

أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور ‥

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء

وليس فى تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح فى الموازنة بينه وبين الحسين ‥

كل أخطائه ثابتة عليه ـ ومنها بل كلها ـ خطؤه فى حق نفسه ودولته ورعاياه • وليس له فضل واحد ثابت ولا

كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله ..

وكانت له ندحة عن السمعة التى لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه فى النعمة التى نعم بها مغتصبا ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه فى الفضل والكرامة جزافا لا حسيب عليه

□

وتسديد العطف الانسانى هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين فى سير الغابرين ، لان العطف الانسانى هو كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التى يحتفظ بها الخلود

واننا لندع الخطأ فى سياسة النفعيين ، وننظر اليهم كأنهم مصيبون فى السياسة بصراء بمواقع التدبير

فعلى هذه الصفة ـ لو تمت لهم ـ لا يحق لخادم زمانه أن ينازع الشهداء فى ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التى تتخطى حياة الاجيال كما تتخطى حياة الافراد ..

فان حرمان الشهداء حقهم في عطف الاسلاف والاخلاف خطأ في الشعور ، وخطأ كذلك في التفكير

والناس خاسرون اذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم انهم قساة أو جاحدون ·· لان الشهادة فضيلة تروح وتأتي وتكثر حينا وتندر في غير ذلك من الاحيان· أما حب المنفعة فان سميته فضيلة فهو من الفضائل التي لن تفارق الاحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء

على أن الطبائع الآدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة، وانما تنحرف عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها · وأكثر ما تأتي هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة في الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوى وسجية سمحة محببة الى الناس عامة ، أو من الافراط في حب الدعة حتى يجفل المرء من الشهادة استهوالا لتكاليفها واستعظاما للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم في رأى ضميره· وان لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور·· وجنح الى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون اليه

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة

التاريخ الصحيح لانها تعرضهم للخطأ فى الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ فى العطف والشعور

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا — فى العربية— مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر الى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءا للمنكرات ، وهو الاستاذ محمد الخضرى صاحب تاريخ الامم الاسلامية رحمه الله .

ففى تعقيبه على ثورة المدينة التى قدمنا الاشارة اليها يقول : « ان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه · ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟·· أيكونون مستقلين عن بقية الامصار الاسلامية ، لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم؟وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقيةالامصار ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الاسلامية ؟ انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة،وكان اللازم على يزيد وأميرالجيش أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة··فانه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار »

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الاستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة : لانه يفهم كيف يغضب المرء لما فى حوزته ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيرة العقيدة عن الاحتمال

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لانه يحول بينه وبين انتظار هـذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ، واستبعادها حيث هى بعيدة عن التقدير

فلم يحدث قط فى مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر الناس كما أرادهم الاستاذ أن يشعروا أو فكروا فى الأمر كما أرادهم أن يفكروا ..

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه أنه لم يحدث من قبل فى حركات التاريخ ..

فهذه الحركات التى تواجه الدول المكروهة لا تنتظر ــ ولا يمكن أن تنتظر ــ حتى تربى قوتها وعدتها على ما فى أيدى الدولة التى تكرهها من قوة وعدة

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقناع وضيق الذرع بالأمور، ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان فى غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق الى تخبط أغلظ منه وأحمق .. فلا هم يقفون فى امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف فى بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه

وعلى هـذا النحو يعرف المؤرخ الذى يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح فى دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذى لابد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

□

وصل الأمر فى عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه ..

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه . وهو ــ بالبداهة التى لا تحتاج الى مقابلة طويلة ــ منحى غير منحى الحساب والجمع والطرح فى دفاتر التجار

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضى الى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فانه لواجد فى نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح آخرا الا فى صفحة الشهداء

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ، ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر فى نهاية مطافها بكل شىء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ..

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون فى أول الشوط ثم ينهزمون فى وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فاذا هم بكل ميزان خاسرون ..

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ..

ولكن يزيد ذهب الى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته وذو

خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين

☐

وانهزم الحسين فى كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى حلة من النور تخشع لها الإبصار ..

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الانسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث

أبو الشهداء

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة .. وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين ..

وأيسر شىء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه ..

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون فى الوهم والضلال ..

لان طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيدا قديسا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة ..

وانما هو طلب وطلب ، وانما هى غاية وغاية ، وانما المعول فى هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ،

وسوى فيه بين الغصب والحق وبين الخداع والصـدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففى سبيل الدنيا يعمل لا فى سبيل الشهادة

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقا ولم يطلبه لانه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعـلم أنه سيموت دونه لا محالة،وطلب الملك وهو يعتز بنصر الايمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعا للمظلمة وجلبا للمصلحة كما وضحت له بنور ايمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذى يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذى يلبى داعى المروءة والأريحية ويطيع وحى الايمان والعقيدة ويضرب للناس مثلا يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياةالاجيال الكثيرة ..

ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق فىأمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..

وهى أنالشهادة خصم ضعيف مغلوب فىاليوموالاسبوع والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين فى الجيل والاجيال ومدى الأيام ..

وهى حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت اليها بعين الارض أو بعين السماء .. على أن تنظر اليها فى نهاية المطاف

ونهاية المطاف هى التى يدخلها « نوع الانســان » فى جسابه ويوشج عليها وشائج عطقه واعجابه . لانه لا يعمل لوجبات ثلاث فى اليوم ، ولا ينظر الى عمر واحد بين مهـد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر الى الخلود

في عالم الجمال

عاشق الجمال

اذا لحقت السيرة بعالم المثال الذى يتطلع اليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربقة الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى فى عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال أنه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة ..

فاذا تعلقت القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهى بين يديها وتقبل على الألم وهى ناظرة اليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالى ما يلقاه فى سبيله

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال فى كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيما لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا اليهم ممدوحين وانما اتجهوا اليهم صورا مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وايلام

وفى معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
ولا لعبا منى ، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسـم منزل
ولم يتطـربنى بنـان مخضب
ولا أنا ممن يزجـر الطير همه
أصاح غراب أم تعـرض ثعلب
ولا السـانحات البارحات عشـية
أمر سليم القرن أم أمر أعضب (١)
ولكن الى أهل الفضـائل والنهى
وخـير بنى حواء ، والخير يطلب
الى النـفر البيض الذين بحبـهم
الى الله فيما نالنى أتقـرب
بنى هاشـم ، رهط النبى ، فاننى
بهـم ولهم أرضى مرارا وأغضـب
خفضت لهم منى جنـاحى مودة
الى كنف عطفاه أهـل ومرحب
يشـيرون بالأيدى الى وقولهم
ألا خاب هذا ، والمشـيرون أخيب
فطائفـة قد كفـرتنى بحبـكم
وطائفة قالوا : مسىء ومـذنب
فما سـاءنى تكفير هاتيك منـهم
ولا عيب هاتيـك التى هى أعيب

---

(١) السانح الطير الذى يمر من اليسار الى اليمين وعكسه البارح ، والاعضب المكسور القرن.

يعيبوننى من خبهم وضلالهم
على حبكم ، بل يسخرون وأعجب
وقالوا : ترابى (١) هواه ورأيه
بذلك أدعى فيهم وألقب
على ذاك اجرياى ، فيكم ضريبتى
ولو جمعوا طرا على وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
وينصب لى فى الأبعدين فأنصب

وقد مر بنا حديث زين العابدين رضى الله عنه وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه »

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الاجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله ..

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص الى الحجر الاسود لتزاحم الحجيج عليه، وانه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزين العابدين يقبل الى الحجر الاسود فيوقاره وهيبته ، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء

وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التى لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة ! »

---

(١) من كنى على بن أبى طالب « أبو تراب » وترابى نسبة اليه

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول الى مثل مكانته بسلطانه وعتـاده فيقول : « لا أعرفه » ٠٠ ويقتضب الجواب

وهذا الذى تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله فى كلمتين عابرتين ٠٠

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذى تعرف البطحـاء وطأته
والبيت يعرفه والحـــل والحـرم
هذا ابن خير عبــــاد الله كلهم
هـــذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمـــة ان كنت جاهله
بجـده أنبيـــــاء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضـــائره
العـرب تعرف من أنكرت والعجم
اذا رأته قريش قال قائلهـــا :
الى مكارم هـــــذا ينتهى الكرم
مـن معشر حبهم دين ، وبغضهم
كفر ، وقربهم منجى ومعتصـــم

□

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة ــ خالد بن عبد الله ــ فلعنه وهو قادر على قتـــله لأنه يلعن عليا وحسينا فى خطبه ، وأنشد :

لعن الله من يسب عليـــا وحسينا من سوقة وامام
أيسب المطهرون جـدودا والـكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام
طبت بيتا وطاب أهلك أهلا أهل بيت النبى والاسلام
رحمة الله والســلام عليه كلما قام قائم بســــلام

وتنقضى السنون وتتسامع العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحد ، ولم ينزه أحدا من المجزلين له أو المقترين عليـــه عن استحقاق الهجاء • فكان ينشد الابيات المقذعة ويسأل عن صاحبها فيقول : «لم يستحقها أحد بعينه بعد، ولسوف يستحقها كثيرون »

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعى الذى يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات فى آل البيت :

مـدارس آيات خلت مـــن تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصـــات !
لآل رســول الله بالخيف من منى
وبالركن والتعريف والجمـــرات
ديار عــلى والحسين وجعفــــــر
وحمزة والسجاد ذى الثفنات (١)
ديار عفاها كل جون مبـــــادر
ولم تعـــف للأيام والســـنوات

(١) كان على بن الحسين يلقب بذى الثفنات لأن جبهته أصبحت كثفنة البعير ــ أى ركبته ــ من كثرة السجود

الى أن يقول :

ملامك فى أهـــل النبى فانـــهم
أحبـــاى ما عاشــوا وأهل ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصـــيرة
وزد حبهم يا رب فى حســـناتى
أحب قصى الرحم من أجـل حبهم
وأهجر فيهم أسرتى وبنـــــاتى
لقــد حفت الأيام حـــولى بشرها
وانى لأرجـــو الأمن بعد وفاتى
ألم تر أنى مـــن ثلاثين حجـــة
أروح وأغـــــدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقســـما
وأيديهم من فيئهم صـــــفرات
فآل رســول الله نحف جسومهم
وآل زياد حفـــــل القصرات (١)
بنات زياد فى القصور مصبـــونة
وآل رســـول الله فى الفلوات !
اذا وتروا مدوا الى أهـــل وترهم
أكفا عن الأوتار منقبضـــات !

□

ووهب على بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمـه

---

(١) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات أى غلاظ الرقاب من السمن

المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل « قم » ثلاثين آلف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها . ثم ترصدوا له في الطريق ليأخذوها منه عنوة تبركا وذكرى.فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض الا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه في كفنه.وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها غير مبالين ما بذلوه في ثمنها

وانقضت فترة لم تطل .. وتسامعت العربيـة بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح

ذلك هو أبو العباس علي بن الرومي الذي نسي ممدوحيه من آل طاهر وبني العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى ابن عمر الشهيد ، ولو كلفه ذكره القتل والحرمان

وفي بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصـيدته الجيمية :

غررتم لئن صـدقتم ان حالة
تدوم لكم ، والدهر لونان ، اخرج
لعـل لهم في منطوى الغيب ثائرا
سيسمو لكم والصبح في الليل مولج
بمجر تضيق الارض من زفـراته
له زجل ينفي الوحوش وهزمج(١)
يود الذي لاقوه أن سـلاحه
هنـالك خلخال عليـه ودملج

(١) الهزمجة اختلاط الصوت ، والمجر الجيش الكبير

فيدرك ثأر الله أنصـــــار دينه
ولله أوس آخـــرون وخـــزرج
ويقضى امام الحق فيكم قضـــاءه
مبينا ، وما كل الحوامل تخـــدج

وكل أولئـــك شاعر ينسى التقوى فى مواطن شتى من عمله وقوله ولا ينساها فى حق الشـــهداء من آل الحســـين وصحبه ‥ لأنه يحس الجمال احساس الشـــعراء ويهتز «للصورة المثلى» اهتزاز الأريحية التي يحلم بها رواد الخيال. فهم هنا بمربأة من قيود العيش ووساوس الحاجة وأعبـــاء النوازع الارضية ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغى أن يقال ‥ فيجرى على لسانهم كأنهم مسوقون اليه ‥

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم عـلى غير أمل فى نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال ‥

☐

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان سىء الظن بالنـــاس أجمعين ‥ وكان يقول ما بدا له فى الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهم فى السابقين أو اللاحقين

ذلك هو أبو العلاء المعرى حيث قال فى الفجر والشفق :

وعـــلى الدهر من دماء الشـــهيد
ين عـــلى ونجـــله شـــاهدان

فهما فى أواخر الليـــــل فجرا
ان وفى أوليـــــاته شـــفقان
ثبتا فى قميصـــه ليجىء الحشـــ
ـر مســـــــــتعديا الى الرحمن

وان وحى الشعر من سرائر النفوس لأصـدق حكما من لسان التاريخ اذا اختلف الحكمان

ولكنهما قد توافيا معا على مقال واحد .. فجلوا لنا من سيرة الحسين رضى الله عنه صورة الجمال فى عالم المثـال ، وكذلك يعيش ما عاش فى اخلاد الناس

فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه ـ السور ـ العسيلى
المدخل الشمالى ص · ب ٥٤٣ بيروت

حلـــب : الشيخ طاهر النعسانى

حمـــاه : السيد سعيد نجار

اللاذقيـــة : السيد نخله سكاف

حمـــص : السيد عبد السلام المباعى ـ ص·ب٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـص·ب ٩٧

بغداد والعراق: السيد محمد جواد حيدر ـ مكتبة المعارف ـ
بسوق السراى ـ بغداد

البحرين والخليج الفـــارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ
البحرين

ساحل الذهب: The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجــــريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

المغـــرب : Mr. Abdella B.M. Assoub, B.P. 156
Auad Ahardan No. 18, Tanger, Maroc.

انجلتـــرا : مكتب توزيع المطبوعات العربية
Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E., 26.

هذا الكتاب

أبو الشهداء ٠٠ أو شهيد الاسلام الأكبر الحسين ابن علي، سبط النبي محمد (ص) وابن فاطمة الزهراء ، وامام أصحاب العقائد ، وخدام الأمثلة العليا، وسيد شباب العرب الذى ضحى بحياته فى سبيل اليقين ، وفى سبيل العمل الخالص لوجه الحق والكمال

هذا هو الكتاب الذى نقدمه فى هذا الشهر ٠ وهو مأساة تاريخية فذة ، وقصة حيـــاة عظيمة امتلأت بأمثلة النبل والشجاعة ، واستشهد صاحبها لخير الانسانية التى تتعطش فى كل زمان الى دماء الشهداء

وقد تناول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد هذه المأساة ، فحلل أسبابها وأحداثها ، وقارن فيها بين الطالبيين والأمويين وطبائع كل من الفريقين، وتحدث عما كان للحسين وأنصاره من أريحية كريمة تسمو بمناقبها على خسة يزيد بن معاوية وأنصاره

وفى حياة الحسين من فضائل النفس
الجهاد فى سبيل العقيـــدة ما ينبغى أن
صالحة لشباب العروبة المتوثب ٠٠ ونحـ
« سلسلة كتاب الهلال » الى أن يكون
يشتمل على أمثلة نافعة يقتدى بها ، أو ع
يقف منها القراء على سير الحياة وطبائع